العلماء وأمانة الكلمة

محمد سرور زين العابدين

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ المبعوث رحمةً للعالمين، نبيّنا محمد وعلىٰ آله وصحبه، ومن اهتدىٰ بهديه واتبع سُنته إلىٰ يوم الدين. أما بعد:

فهذه هي الطبعة الثالثة لكتاب [**العلماء وأمانة الكلمة**] وقد أحدثت فيه ما يلي: قسّمته إلىٰ أربعة فصول، أما الفصلان: الأول والثاني فاكتفيت بإعادة ترتيب عناوين الموضوعات، وأبقيت المضمون كما هو في الطبعتين السابقتين إلا تنقيح بعض الكلمات. وأما الفصل الثالث فاخترت له العنوان [**علماء السلطان**] ومن قبل كان مختصرًا، فتوسّعت فيه، وذكرت نماذج من هؤلاء العلماء الذين يغيّرون مواقفهم كما يغيّرون ملابسهم التي اتسخت، ويقدّمون أوامر السلطان الجائر علىٰ أوامر الله تعالىٰ، ويتّبعون ما تمليه عليهم شهواتهم وأطماعهم، لقد مضىٰ هؤلاء يحملون أوزارهم، وخلّفوا وراءهم المال والجاه وسائر ما جمعوه في دنياهم، ولكن الذي يدعو إلىٰ الحيرة أنني -وفي حدود ما اطلعت عليه- ما رأيتُ ولا سمعتُ أنّ أحدًا من هؤلاء تاب إلىٰ الله قبل مغادرته لهذه الدنيا الفانية، ولكن الذي رأيته وسمعتُ به أنّ السلطان عندما يرفس أحد هؤلاء الشيوخ بعد أن يأخذ منه كلّ ما يقدر عليه، تراه يجلس في بيته حزينًا كئيبًا، ينتظر ويحاول، لعل قلب سيده يرِقّ فيعيده إلىٰ عمل آخر، أو يأتيه عرض من سيد آخر، فيسارع معيدًا سيرته الأولىٰ دون أن يتعظ أو يرعوي.

أما الفصل الرابع والأخير، وهو من أوسع فصول الكتاب، جعلت عنوانه [**عندما يكون الحكم لغير شرع الله**] وهذه المسألة من أهم نوازل هذا العصر، فقد أفاق المسلمون فوجدوا أن الخلافة أُلغيت، وبلادهم قسّمت إلىٰ دويلات صغيرة يحكمها

الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون، وشريعة الله قد نُحّيت. وبعد جهاد مرير خرج المستعمر، واحتفل الناس بأيام الاستقلال، ولكن الذين تسلّموا مقاليد الحكم في بلادنا ممّن سمّاهم الناس أبطال الاستقلال أبقوا قوانين العدوّ المحتل وشريعته وأنظمته دون تغيير ولا تبديل، وكأننا لسنا أصحاب شريعة أنزلها العليم القدير، لهذا فقد تحدثت في هذا الفصل عن واقعنا المعاصر، ثم سردتُ فتاوىٰ علماء هذا العصر، وختمت الفصل ببيان موقفي الذي لا يختلف عن مواقف العلماء الأفاضل، وأكدت فيما ذكرت بأن التكفير حكم شرعيّ، ولا ينبغي أن يخوض فيه من لا علم عنده، وأن تكفير المطلق غير تكفير المعيّن.

وأسأل الله تعالىٰ أن يكون كتابي هذا عبرةً لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، وأن يجعل علماء العصر -وكل عصر- ورثةً لأنبياء الله، كما كان عليه علماء السلف الصالح، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٩ رمضان المبارك ١٤٣٠ه

محمد سرور زين العابدين

المقدمة

الحمد لله القائل في محكم التنزيل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [سورة فاطر:٢٨]، والصلاة والسلام علىٰ نبيّنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آله وأصحابه ومن اهتدىٰ بهديه ودعا بدعوته إلىٰ يوم الدين. أما بعد:

فلما كان العلماء ورثة الأنبياء، فقد أوجب الله عليهم بيان الحق للناس، وحرّم عليهم كتمانه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨٧]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة البقرة:١٥٩]، والمعنىٰ كلّ من كتم علمًا من دين الله يعلمه، وكان الناس بحاجة إليه، يقول ﷺ: «**من سُئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار**».(١)

وكما أوجب سبحانه وتعالىٰ علىٰ العلماء أن يبيّنوا الحق للناس ولا يكتمونه، فقد أوجب علىٰ الناس أن يعودوا إلىٰ علمائهم فيستفتوهم في المسائل الشائكة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [سورة النساء:٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الأنبياء:٧]، فلا بدَّ للسائل أن يختار العالم المتمكّن في علمه، البعيد عن مواطن الشبهات، ويحذّر من الجهلة الذين يدّعون العلم. قال ﷺ: «**إنّ الله لا**

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتىٰ إذا لم يُبقِ عالمًا اتّخذ الناس رؤساء جهّالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا».[1]

ولا إخالُ أحدًا يجهل أمر هؤلاء الرؤساء الجهلة الذين أسند الظالمون لهم وظائف علميةً ليسوا أهلاً لها، فأسرفوا في المتاجرة بدين الله إرضاءً لسادتهم، وطمعًا بمزيد من الهبات والعطايا التي يقدّمونها لهم.

كما لا إخالُ أحدًا يجهل فتاوىٰ الغلاة الذين أخطؤوا في فهم أقوال أئمة الإسلام التي يستدلّون بها، وأخطؤوا في إسقاطها علىٰ واقعنا المعاصر، وأخطؤوا مرةً ثالثةً عندما تصدّوا لمهمة ليسوا أهلاً لها.

والعلماء الدعاة وحدهم هم القادرون علىٰ حسم هذه الفوضىٰ العارمة، ورسم المسار الصحيح، فهم الصمّام الحقيقي للأمة، لذا فمن سُنة الله -سبحانه وتعالىٰ- ألا يخلو عصر من الأعصار ولا مصر من الأمصار من العلماء الصالحين المصلحين، ولن يجد النّاس صعوبةً في الاهتداء إليهم، لأنّ الله سبحانه وتعالىٰ قد خصّهم بكثير من الصفات التي كان يمتاز بها الهداة المهديون من أئمة هذا الدين.

إنّ مسؤولية هؤلاء العلماء كبيرة وكبيرة جدًّا، والأمل فيهم بعد الله يتضاعف، لأن المطلوب منهم إصلاح الناس ومناصحة الأمراء، ومطلوب منهم عدم تأخير البيان عند الحاجة... ومن أجل إبراز مهمة هؤلاء العلماء الدعاة، ودحض شبهات المتخاذلين قمت بتأليف هذا الكتاب وأسميته [**العلماء وأمانة الكلمة**]، وهو عبارة عن حلقات اجتزأتها من سلسلة حلقات [**الوحدة الإسلامية**] التي بدأت بنشرها في العدد الأول من

---

(١) متفق عليه.

مجلة [**السُّنة**] الصادر في شهر جمادىٰ الأولىٰ ١٤١٠هـ الموافق كانون الأول ١٩٨٩م، وما زلت مهتمًّا بهذا الموضوع الذي لا يكاد عدد من أعداد المجلة يخلو من حلقة من حلقاته إلا نادرًا، حريصًا علىٰ إتمامه، عاملاً بجميع ما رزقني الله من طاقات علىٰ ترجمة هذا الجهد إلىٰ واقع عملي من خلال الحوار الهادف البناء.

وأختم هذه المقدمة بدعوة العبد الصالح: اللَّهُم لا تُعذّب لسانًا يخبر عنك، ولا عينًا تنظر إلىٰ علوم تدل عليك، ولا قدمًا تمشي إلىٰ خدمتك، ولا يدًا تكتب في سبيلك، فبعزِّتك لا تدخلني النار، اللهم آمين.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

لندن

١٩ربيع الأول ١٤١٩هـ

محمد سرور زين العابدين

الفصل الأول:
موقف علماء السلف
من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- المبحث الأول: حدود طاعة ولي الأمر.
- المبحث الثاني: حتىٰ لا تكون فتنة.
- المبحث الثالث: موقف شيخ الإسلام ابن تيمية.

حدود طاعة وليّ الأمر

إذا كان جمهور علماء الأمة قد اتفقوا علىٰ عدم الخروج علىٰ أئمة الجوْر مع وجوب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ فإن إجماعهم قد انعقد علىٰ أنه لا تصح ولاية الكافر علىٰ المسلمين، وإذا طرأ عليه كفر أو تغيير للشرع سقطت ولايته، ووجب علىٰ المسلمين القيام عليه وخلعه، ومن الأدلة علىٰ ذلك، ما يلي:

١-قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [سورة النساء:١٤١]، وكلمة [**سبيلاً**] هنا نكرة في سياق النفي التي تفيد العموم، وأي سبيل أعظم من سبيل الإمامة؟!

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: «**دعانا النبي صلىٰ الله عليه وسلم فبايعناه فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا علىٰ السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأَثَرَة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا**». وفي رواية مسلم زيادة: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان**».[(١)]

[**قوله وأثرة علينا**]: المراد أن طواعيتهم لمن يتولّىٰ عليهم لا يتوقّف علىٰ إيصالهم حقوقهم بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقهم.

[**قوله إلا أن تروا كفرًا بواحًا**]: قال الخطابي: ظاهرًا باديًا من قولهم باح بالشيء يبوح به بوحًا وبواحًا إذا أذاعه وأظهره.

[**عندكم من الله فيه برهان**]: أي نصّ آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل،[(٢)] قاله

(١) متفق عليه.

(٢) انظر فتح الباري (١٦/ ١١٣) الحلبي، صحيح مسلم بشرح النووي: (١٢/ ٢٢٩).

الحافظ ابن حجر.

والمقصود من الحديث أنه يجب الخروج علىٰ الحاكم الكافر إذا وقع بالكفر الصريح الواضح كإنكاره معلومًا من الدين بالضرورة، والعلماء الذين فسّروا الكفر البواح بالمعاصي كالنووي أرادوا معاصي معيّنةً فيها مخالفة لقواعد الإسلام، أما المعاصي العامّة التي ترتبط بشخص الحاكم، فهي كما قال الإمام النووي في شرحه لحديث عبادة ما نصه:

(لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرًا محقّقًا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقةً ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنىٰ ما ذكرته، وأجمع أهل السُّنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق وأما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل وحكي عن المعتزلة أيضًا فغلط من قائله مخالف للإجماع. قال العلماء وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب علىٰ ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه).[1]

ومما كتبه النووي في جوابه للسلطان:

(وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨٧]، فوجب علينا حينئذ بيانه وحرم علينا

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٢٢٩).

السكوت).[١]

٢-وعن عوف بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلّون عليكم وتصلّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم، قيل: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدًا من طاعة**».[٢]

وإقامة الصلاة بالنسبة إلىٰ الحاكم تعني شهود صلاة الجماعة في المساجد، والدعوة إليها، وإقامة الحدود المتعلقة بها.

٣- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشيّ كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله**».[٣]

وهذا الحديث واضح الدلالة علىٰ وجوب السمع والطاعة للحاكم إذا طبّق شرع الله علىٰ رعيته، وليس مهمًّا بعد ذلك: من يكون هذا الحاكم؟ وما الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها؟

٤-من أقوال العلماء:

- قال القاضي عياض: (أجمع العلماء علىٰ أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلىٰ أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل... وكذلك لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها...)، وقال

---

(١) سيأتي ذكر موقف النووي عند الكلام عن [الشبهة الأولىٰ].

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم.

(٣) صحيح البخاري [الأحكام/ باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصيةً].

أيضًا: (فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب علىٰ المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه فإن تحقّقوا العجز لم يجب القيام وليهاجر المسلم عن أرضه إلىٰ غيرها ويفر بدينه). [١]

- وقال ابن حجر العسقلاني: (إنه ينعزل بالكفر إجماعًا فيجب علىٰ كل مسلم القيام في ذلك، فمن قوي علىٰ ذلك فله الثواب، ومن داهن فعليه الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض)[٢].
- وقال رشيد رضا: (ومن المسائل المجمع عليها قولاً واعتقادًا: أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإنما الطاعة في المعروف، وأن الخروج علىٰ الحاكم المسلم إذا ارتدّ عن الإسلام واجب، وأن إباحة المجمع علىٰ تحريمه: كالزنا والسكر واستباحة إبطال الحدود وشرع ما لم يأذن به الله كفر وردّة، وأنه إذا وُجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع، وحكومة جائرة تعطّله وجب علىٰ كل مسلم نصر الأولىٰ ما استطاع، وأنه إذا بغت طائفة من المسلمين علىٰ أخرىٰ وجرّدت عليها السيف وتعذَّر الصلح بينهما فالواجب علىٰ المسلمين قتال الباغية المعتدية حتىٰ تفيء إلىٰ أمر الله. وما ورد في الصبر علىٰ أئمة الجوْر إلا إذا كفروا معارض

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: (١٢/ ٢٢٩).

(٢) فتح الباري (١٦/ ٢٤١).

بنصوص أخرىٰ، والمراد به اتقاء الفتنة وتفريق الكلمة المجتمعة).[١]

إنّ الأدلة من الكتاب والسُّنة وإجماع الأمة المتواترة علىٰ أن ولاية الحاكم تسقط بردّته، ويصبح الخروج عليه واجبًا إذا كانوا يملكون القدرة علىٰ ذلك.

لقد تغيّر الحال بعد هدم الخلافة الإسلامية، فقد والىٰ الظالمون في بلادنا أعداء الله، وعادوا أولياءه، واستبدلوا القوانين الأوروبية الجاهلية بأحكام الشريعة الإسلامية [٢] مما تتعارض جملةً وتفصيلاً مع أحكام ديننا ومع العادات والتقاليد التي اشتهر بها العرب وتميّزوا بها عن غيرهم من الأمم والأجناس، وفضلاً عن ذلك فقد كمّموا أفواه الرعية، ونشروا الظلم والفساد والانحلال في كل واد، وأصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظل الأنظمة التي تحارب الإسلام إرهابًا وتطرّفًا وخروجًا علىٰ ولاة الأمر.

كان من بين المرتدّين بعد وفاة رسول الله ﷺ صنف امتنعوا عن دفع الزكاة مع إقرارهم بالإسلام، ومع ذلك فقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم بعد أن استبان لهم الدليل علىٰ قتالهم، وقال أبو بكر رضي الله عنه قولته الشهيرة: «**والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة**».

فكيف بمن عطّل الحدود كلها أو جلّها، واتخذ من نفسه ندًّا لله في الحكم والتشريع؟! وكيف بمن ادّعىٰ بأنّ العلماء والدعاة ليس من حقّهم التدخل في الشؤون السياسية حيث لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة؟! بل وكيف بمن لم يلتزم بهذا القانون الظالم الذي فرضه، وأدخل سياسته الغاشمة في الدّين؟! أي لم يترك عباد الله أحرارًا في مساجدهم

---

(١) تفسير المنار: (٦/ ٣٦٧).

(٢) إن جذور الانحراف والفساد -ومنها استبدال القوانين الأوروبية بأحكام الشريعة الإسلامية- بدأت منذ عهد الخليفة العثماني سليمان القانوني.

وصلاتهم وصيامهم وزكاتهم وحجهم!

والذي يثير الدهشة أن أثر هذا الزلزال العظيم -هدم الخلافة- أخذ يخِفّ تدريجيًّا، ولم يجد المتجبّرون صعوبةً بالغةً في شراء ضمائر بعض المنتسبين إلىٰ العلم بأبخس الأثمان، ولهذا بدأنا نسمع من هؤلاء الذين طلبوا رضىٰ السلطان بسخط الله منكرات لا حصر لها، ومنها قولهم:

إن التقنين والاحتكام إلىٰ غير شرع الله كفر دون كفر-كما قال ابن عباس- ومن ذلك رميهم كل من ينكر المنكر بمختلف الاتهامات: كالخروج، والمروق من الدين، وإثارة الفتن، وإثارة الفرقة بين أبناء الأمة.

وأمام هذا الإرهاب توارت الفتاوىٰ والكتابات التي تُسخط السلاطين، وفي مقدمة هذه المسائل: شرعية الأنظمة المعاصرة، وكيف نتعامل مع هذه العلمانية التي أصبحت بديلاً لنظام الخلافة؟!

تنبّه الشيخ رشيد رضا رحمه الله إلىٰ أهمية هذه المسألة، فكتب: (... ولم أرَ قولاً لأحد جمع به بين كلّ ما ورد من الآيات والأحاديث في هذا الباب، ووضع كلاً منها في الموضع الذي يقتضيه سبب وروده مراعيًا اختلاف الحالات في ذلك، مبيّنًا مفهومات الألفاظ بحسب ما كانت تستعمل به في زمن التنزيل دون ما بعده. مثال هذا لفظ [**الجماعة**] إنما كان يراد بها جماعة المسلمين التي تقيم أمر الإسلام بإقامة كتابه وسُنة نبيه ﷺ، ولكن صارت كل دولة أو إمارة من دول المسلمين تحمل كلمة الجماعة علىٰ نفسها، وإن هدمت السُّنة، وأقامت البدعة، وعطّلت الحدود، وأباحت الخمور. ومثال اختلاف الأحوال تعدّد الدول، فأيها تجب طاعته والوفاء ببيعته؟ وإذا قاتل أحدها الآخر

فأيها يُعدّ الباغي الذي يجب علىٰ سائر المسلمين قتاله حتىٰ يفيء إلىٰ أمر الله؟ كل قوم يطبقون النصوص علىٰ أهوائهم مهما كانت ظاهرةً).[١]

وبعد مضي أكثر من سبعين عامًّا علىٰ هذه الصيحة التي أعلنها رشيد رضا في تفسيره، لا تزال الحاجة ملحّةً إلىٰ إظهار مثل هذه الدراسات لا سيما بعد جراءة الحكام علىٰ إصدار قرارات ما كانوا قادرين علىٰ إصدارها في مرحلة الثلاثينيات من القرن الماضي لأنهم كانوا يتدرّجون في نبذهم للأحكام والآداب الإسلامية مراعاةً لمشاعر الأمة وخوفًا من الانفجار، أما اليوم فلم تعد بهم حاجة لهذا التدرّج، وما عادت مشاعر الأمة تستحق المراعاة.

ومن جهة أخرىٰ فقد أصدر بعض العلماء في عهد رشيد رضا فتاوىٰ جريئةً، ودراسات مفيدةً، لأنهم ما كانوا يعرفون عبودية هذه الوظائف التي سلبت الذين يقبلون بها -وبخاصة الوظائف القيادية الكبيرة- أبسط معاني الحرية، ولأن الحكام في ظل الاستعمار [**الأنكلو فرنسي**] كانوا يسمحون بقسط من الحرية يتيح لكل عالم أو مفكر التعبير عن رأيه في الخير أو الشر، ومازلنا كلما كتب أحدنا بحثًا لا بد أن يذكر فيه شواهد من أقوال: جمال الدين القاسمي، رشيد رضا، أحمد شاكر، محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وغيرهم من كبار علماء هذه المرحلة.

أما اليوم فلم يعد العلماء والدعاة أحرارًا فيما يكتبون أو يخطبون أو يفتون، ولم يعد مسموحًا بصدور دراسات وفتاوىٰ تمس الطواغيت والمارقين وشرائعهم، ومن ذا الذي يجهل ما يلقاه الدعاة في سجون الجبابرة من إهانة وتعذيب؟! وبعد هذا الظلم لا يعطي

---

(١) تفسير المنار (٦/ ٣٦٧)، قاله في معرض تفسيره لقوله تعالىٰ: (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ) [المائدة: ٣٣].

الظالمون المتّهمين فرصةً للدفاع عن أنفسهم، ليثبتوا براءتهم مما نُسب إليهم أمام محكمة عادلة، وقد أحسن من وصف هذه السجون بقوله: (الداخل إليها مفقود، والخارج منها مولود).

ومن ذا الذي يجهل ما تفرضه وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة من الأفلام الهابطة ونشر الروايات الساقطة التي تعلّم الشباب العنف والجنس والرذيلة وفساد الأخلاق؟

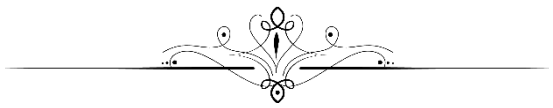

حتى لا تكون فتنة

كلما أراد الناس من هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من العلم إنكار منكرات السلاطين وبطانتهم قالوا: تجنّبوا طرح هذه المسائل لأنها تثير الفتنة. مع أن هذه المنكرات قد تصل إلىٰ حدّ الكفر البواح. فما المفهوم الشرعيّ لمصطلح الفتنة؟ وما موقف أئمة السلف من هذا المفهوم؟! وبيانه فيما يلي:

مفهوم الفتنة:

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة التوبة:٤٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الأنفال:٣٩].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الآية الأولىٰ: (وقد ذُكر في التفسير أنها نزلت في الجدّ بن قيس لما أمره النبي ﷺ بالتجهز لغزو الروم، فقال: يا رسول الله، إني رجل لا أصبر عن النساء؛ وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر فائذن لي ولا تفتني. وهذا الجد هو الذي تخلّف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة، واستتر بجمل أحمر؛ وجاء فيه الحديث: «**إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر**». فأنزل الله تعالىٰ فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة التوبة:٤٩] أي: ... نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زيُن له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلّص من فتنة

صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة الأنفال:٣٩]. فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنةً: فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده، وترك ما أمر الله به من الجهاد).[١]

الفتنة إذًا: أن يكون الدين -كله أو بعضه- لغير الله تعالىٰ، سواء أقلّ بعضه أم كثر[٢]، ثم يسكت بعض العلماء عن مواجهة هذا الكفر البواح رغبةً في مناصب السلطان وأمواله، أو رهبةً من بطشه وجبروته وطغيانه.

والفتنة تراجُع بعض العلماء عن فتاويهم ومواقفهم السابقة، وهذا التراجع يوقعهم في تناقضات يعرف المبتدئون في طلب العلم خطأها، كقولهم: لا يجوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بإذن السلطان، وإذا كان الأمر يتعلّق بوليّ الأمر فلا يصح إلا أن يكون سرًّا.. وقولهم إن [الحاكمية] لا تعدّ قسمًا من أقسام التوحيد، ثم يقام النكير علىٰ من يخالفهم القول في ذلك.

والفتنة في مسارعة بعض الذين أوتوا نصيبًا من العلم إلىٰ إصدار الفتاوىٰ التي ترضي السلطان، وتهيئ له الفرصة للبطش بالعلماء والدعاة الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وتمكِّنه من شقّ صف العلماء وزعزعة موقفهم أمام عدوهم.

والفتنة أيضًا في اقتتال المسلمين فيما بينهم، والآيات والأحاديث كثيرة في هذا الشأن، منها ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير قال:«**خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن**

---

(١) فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ١٦٦).

(٢) إذا كان معلومًا من الدين بالضرورة.

يحدثنا حديثًا حسنًا، قال: فبادرنا إليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن! حدثنا عن القتال في الفتنة والله يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [سورة البقرة:١٩٣] فقال: هل تدري ما الفتنة ثكلتك أمك؟ وإنما كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة وليس كقتالكم»(١).

إنّ ما يريده الناس من العلماء هو بيان حكم الشرع فيمن استبدل شريعة الطاغوت بشريعة الله، ولا يريدون منهم حمل السلاح أو دعوة الناس إلىٰ ذلك...ولا يجوز لهم كتمان ما ائتمنهم الله عليه، قال تعالىٰ:﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨٧]، وقد لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، قال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة المائدة:٧٨].

وكل من يفعل فعل الذين كفروا من بني إسرائيل يستحق اللعنة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة البقرة:١٥٩].

وللمفسرين أقوال مهمّة في تفسير هذه الآية:

- قال الطبري:

(وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاصٍّ من الناس، فإنها معنيٌّ بها كل كاتم علمًا فرض

(١) رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الفتن (٨/ ٩٥).

الله تعالىٰ بيانه للناس، وذلك نظير الخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من سئل عن علم يعلمه فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار**»).[١]

- وقال صاحب المنار:

(إن العبرة في الآية هي أن حكمها عام وإن كان سببها خاصًّا، فكل من يكتم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة. ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجةً علىٰ الذين لبسوا لباس الدين من المسلمين وانتحلوا الرئاسة لأنفسهم بعلمه، حاولوا التفصي منه، فقال بعضهم: إن الكتمان لا يتحقّق إلا إذا سُئل العالم عن حكم الله تعالىٰ فكتمه، وأخذوا من هذا التأويل قاعدةً هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما أنزل الله تعالىٰ ودعوة الناس إليه وبيانه لهم، وإنما يجب علىٰ العالم أن يجيب إذا سُئل عمّا يعلمه، وزاد بعضهم: إذا لم يكن هناك عالم غيره وإلا كان له أن يحيل علىٰ غيره.

وهذه القاعدة مسلّمة عند أكثر المنتسبين إلىٰ العلم اليوم وقبل اليوم بقرون، وقد ردّها أهل العلم الصحيح فقالوا: إن القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد علىٰ الكتمان، بل أمر ببيان هذا للناس، وبالدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبر فيما حكاه عن الذين قصروا فيها من قبل...). وختم كلامه بقوله:

(ما ورد عن تدافع علماء السلف في الفتوىٰ فإنما هو في الوقائع العلمية الاجتهادية التي تَعرض للناس لا في الدعوة إلىٰ مقاصد الدين الثابتة بالنصوص، وسياجها من الأمر

---

(١) تفسير الطبري دار المعارف بمصر: (٢/ ٢٥٢)، وخرّج أحمد شاكر الحديث فقال: [هذا الحديث صحيح رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة، وخرّجناه في شرح المسند، وفي صحيح ابن حبان بتحقيقنا].

بالمعروف والنهي عن المنكر).[١]

إن العلماء المعنيين لا يجهلون هذه الأحكام التي عرضناها، ومع ذلك فقد سُئلوا وألحّ عليهم السائلون فكتموا ما أوجب الله عليهم بيانه والصدع به، وسكتوا عن بيان قواعد الدين وإسقاطها علىٰ الواقع خوفًا من السلطان، والله جلّ وعلا أحق بالخوف والخشية من أعتىٰ سلاطين أهل الأرض، وهذه والله هي الفتنة!

وإذا كان المخالفون يتفقون معنا في الاقتداء بأئمة السلف، فلا بأس من التذكير بشيء من فهمهم للنصوص الآنفة الذكر، مع الإشارة إلىٰ بعض مواقفهم في إنكار المنكر وعدم كتمان العلم:

١ - أبو حنيفة النعمان: رفض الأعطيات التي كان يعرضها عليه أبو جعفر المنصور، وقال لرسول الخليفة: (ما وصلني أمير المؤمنين في ماله بشيء فرددته، ولو وصلني بذلك لقبلته إنما أوصلني أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين، ولا حقّ لي في بيت مالهم، إني لستُ ممن يقاتل من ورائهم، فآخذ ما يأخذه المقاتل، ولستُ من ولدانهم فآخذ ما يأخذه الولدان، ولستُ من فقرائهم فآخذ ما يأخذ الفقراء).

ورفض رئاسة القضاء، وعُذّب من أجل ذلك، فكان ردّه علىٰ المنصور: (... إنّ هذا دعاني للقضاء فأعلمته أني لا أصلح، ولا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نَفْس يحكم بها عليك، وعلىٰ ولدك وقوادك، وليس تلك النفس لي، إنك لتدعوني فما ترجع نفسي حتىٰ أفارقك).[٢]

---

(١) تفسير المنار: (٢/ ٥١).

(٢) انظر تاريخ بغداد: (١٣/ ٣٢٨)، والمناقب للمكي: (١/ ٢١٥).

٢- مالك بن أنس: بدأت محنة الإمام مالك في درس من دروسه التي كان يقرّرها في المسجد النبوي بالمدينة، وذلك عندما شرح حديث رسول الله ﷺ: (ليس علىٰ مستكره طلاق) ووجد المناوئون لحكم أبي جعفر المنصور في هذا الحديث مستندًا قويًّا علىٰ التحلّل من بيعته لأنها جاءت عن طريق الإكراه، إذ قاسوا البيعة علىٰ الطلاق، فقالوا: (وليس علىٰ مستكره بيعة).

ووجد المنصور وولاته خطرًا عليهم في نشر هذا الحديث، فحاولوا منع الإمام مالك من التحدّث به، فما استجاب لهم رغم تعرضه للضرب والإهانة وأبىٰ كتم العلم.(١)

٣- سفيان الثوري: وعنه -رحمه الله- قال: دخلتُ علىٰ أبي جعفر بمنىٰ، فقال لي: ارفع حاجتك، فقلت له: اتق الله! فإنك قد ملأت الأرض جورًا وظلمًا، قال: فطأطأ رأسه، ثم رفع وقال: ارفع لنا حاجتك، فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعًا، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم. قال: فطأطأ رأسه ثم رفع. وقال: ارفع إلينا حاجتك. قلت: حجّ عمر بن الخطاب ﷺ فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهمًا، وأرىٰ هاهنا أمورًا لا تطيق الجِمال حملها.

وكانت له مواقف قوية مع المهدي الذي عهد إليه بقضاء الكوفة، فأخذ العهد ومزّقه بعد أن غادر ديوان الخلافة، وغاب عن أنظار الناس، فطُلب في كل بلد، ومات عام ١٦١هـ مستخفيًا بالبصرة.

وعن يحيىٰ بن يمان قال: سمعت سفيان يقول: العالم طبيب الدّين، والدرهم داء

(١) البداية والنهاية: (١٠/ ١٧٤) و (١٠/ ٨٤) وكتاب الإسلام بين العلماء والحكام للشيخ عبد العزيز البدري، ص(١٥٥).

الدّين، فإذا اجترَّ الطبيب الداء إليه متىٰ يداوي غيره. هذا هو سفيان الثوري الذي قال عنه شعبة: أصحاب المذاهب الثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه، وقال عنه الإمام أحمد: لا يتقدّمه في قلبي أحد. ثم قال: تدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري.(١)

٤- أحمد بن حنبل: أصدر الخليفة المأمون أمره لواليه علىٰ بغداد -إسحاق بن إبراهيم- بضرب عنق كل من يخالف اعتقاده بخلق القرآن الكريم، وأخذ العلماء بالرخص إلا أربعة منهم: أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح وعبيد الله القواريري وسجادة، فأُدخلوا السجن مصفّدين بالأغلال، وفي اليوم التالي جيء بهم إلىٰ حاكم بغداد لإعادة السؤال عليهم.

فأجاب سجادة بما ينجيه ولحق القواريري بصاحبه، فأُطلق سراحهما، وبقي ابن حنبل وابن نوح، أما ابن نوح فمات سجينًا في [**عانه**] -وهي بلدة عراقية-، وأما الإمام أحمد فنقلوه من سجن لآخر حتىٰ انتهىٰ المطاف به في سجن الياسرية ببغداد، ثم نقلوه إلىٰ حبس العامة في درب الموصلية، وفي هذا طُرح ثمانية وعشرون شهرًا، وجلد أكثر من ألف سوط، وسالت دماؤه وأشرف علىٰ الموت دون أن ينتزع منه الطغاة أي اعتراف ببدعتهم، ومن أقواله المأثورة:

(يا عم -عمه إسحاق بن حنبل- إذا أجاب العالم تقيّةً، والجاهل يجهل، متىٰ يتبيّن الحق؟).

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ١٣٤)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٤)، وما رواه الأساطين في عدم المجيء إلىٰ السلاطين، للسيوطي، ص(٨٣)، دار ابن حزم.

ولما دخل عليه يحيىٰ بن معين يعوده في مرضه، لم يردَّ عليه السلام، فما زال ابن معين يعتذر بقول الله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [سورة النحل:١٠٦]، وبحديث عمار، فقلب أحمد وجهه إلىٰ الجانب الآخر، فقال يحيىٰ: لا يقبل عذرًا.

فلما خرج يحيىٰ قال أحمد: يحتج بحديث عمار، وحديث عمار: مررت بهم وهم يسبّونك فنهيتهم فضربوني، وأنتم قيل لكم: نريد أن نضربكم، فقال يحيىٰ: والله ما رأيت تحت أديم السماء أفقه في دين الله منك.

شهد الإمام أحمد رحمه الله هلاك المأمون ثم المعتصم ثم الواثق الذي خشي من قوة شعبية ابن حنبل فمنعه من التدريس، وفرض عليه الإقامة الجبرية في منزله، ثم جاء المتوكل فأزال الغمّة، وفكّ أسْر المسجونين، ونصر الله أهل السُّنة والجماعة.

٥- البخاري: طلب خالد بن أحمد الذهلي-أمير خراسان- من الإمام البخاري أن يحضر إليه من بلده بخارىٰ ليسمع أولاده منه -أي ليعلّمهم وهذا ما يتمنّاه ويسعىٰ إليه كثير من العلماء في هذا العصر وغيره-، فأبىٰ أن يذهب، وقال لرسول الأمير: (في بيتي يُؤتىٰ العلم)، وكان ذلك سببًا في حقد الأمير عليه، وفي نفيه من بلده بخارىٰ إلىٰ قرية [خرتنك] علىٰ بعد فرسخين من سمرقند. وعندما توفّاه الله في هذا المنفىٰ عمّ بغداد الاستياء، وطالبوا بالثأر للإمام البخاري من أمير خراسان، وكان لهم ما أرادوا فقد انتقم الله من هذا الظالم، ومات في سجن بغداد.[1]

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٩)، والبداية والنهاية (١١/ ٢٤).

٦- النووي: يقول علاء الدين بن العطار تلميذ الإمام النووي: (كان -النووي- مواجهًا للملوك والجبابرة، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة؛ كتب الرسائل، وتوصل إلىٰ إبلاغها، فمما كتبه وأرسلني في السعي فيه وهو يتضمن العدل في الرعية، وإزالة المكوس عنهم).[1]

فكان جواب السلطان بالإنكار والتوبيخ والتهديد فكتب -رحمه الله- جوابًا لذلك الجواب، ومما جاء فيه:

(... وقد أوجب الله إيضـــاح الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [سورة آل عمران:١٨٧]، فوجب علينا حينئذ بيانه، وحرّم علينا السكوت).

وقال أيضًا ما موجزه:

(ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء مادام في بيت المال شيء من نقد، أو متاع، أرض، أو ضياع تباع، أو غير ذلك... وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان -أعزّ الله أنصاره- متفقون علىٰ هذا، وبيت المال بحمد الله معمور).

وقال في رّده علىٰ تهديد السلطان:

(وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة، فليس هو المرجوّ من عدل السلطان وحلمه! وأي حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحةً للسلطان ولهم، ولا

(١) كتب معه في ذلك : شيخ الإسلام عبد الرحمن بن أبي عمر شيخ الحنابلة، والشيخ العلامة عبد السلام بن عمر الزواوي شيخ المالكية، والشيخ المفتي محمد بن عبد الكريم الحرستاني خطيب دمشق وابن خطيبها، وجماعة آخرون.

علم لهم به؟ وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه؟!).

(وأما أنا في نفسي؛ فلا يضرني التهديد، ولا أكبر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب عليّ وعلىٰ غيري، وما ترتّب عليه الواجب؛ فهو خير وزيادة عند الله تعالىٰ؛ ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ [سورة غافر:٣٩]، ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾ [سورة غافر:٤٤]، وقد أمرّنا رسول الله ﷺ أن نقول بالحق حيث ما كنا، وأن لا نخاف في الله لومة لائم).

ومما كتبه لما احتيط علىٰ أملاك دمشق -حرسها الله تعالىٰ- بعد إنكاره مواجهة السلطان الظاهر، وعدم إفادته وقبوله:

(ولقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة علىٰ أملاكهم أنواع من الضرر، لا يمكن التعبير عنها، وطلب منهم إثبات لا يلزمهم ، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين، بل من في يده شيء فهو ملكه لا يحل الاعتراض عليه، ولا يُكلّف بإثباته).[1]

إنه لا شيء كان يمنع الإمام النووي رحمه الله من هذه المواقف الجريئة، لأنه رفض الألقاب والوظائف، ونأىٰ بنفسه عن مجالس الأمراء والسلاطين، وكان طعامه خشنًا، ويكتفي بأكلة واحدة في اليوم، وينام في غرفة بمدرسة الرواحية، ولم يكن له أبناء ولا زوجة، فأيّ شيء يشدّه -رحمه الله- إلىٰ مفاتن الدنيا وشهواتها؟!

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محي الدين، لتلميذه علاء الدين علي بن إبراهيم بن العطار المتوفىٰ عام ٧٢٤، دار الصميعي، الرياض.

٧- العز بن عبد السلام: استعان الملك إسماعيل بن العادل بالصليبيين ضدّ أخيه نجم الدين سلطان مصر، وأعطاهم مقابل ذلك صيدا -حسب رواية السُّبكي- وقلعة صفد وغيرها -حسب رواية المقريزي-، ثم سمح للصليبيين بدخول دمشق بقصد شراء السلاح وسائر آلات الحرب.

وقف سلطان العلماء العز بن عبد السلام بوجه هذه الخيانة [1] وأفتىٰ بتحريم بيع السلاح، ثمّ صعد منبر الجامع الأموي حيث كان خطيبه الرسمي، وأعلن فتواه المشهورة بتحريم بيع السلاح للصليبيين ثمّ قطع من الخطبة الدعاء للسلطان إسماعيل، وهذا يعني نزع البيعة له ثم راح يدعو الدعاء التالي والناس يضجّون بالتأمين علىٰ دعائه: (اللهمّ أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يُعزّ فيه أولياؤك، وتذل فيه أعداؤك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهىٰ فيه عن معصيتك).

كان السلطان إسماعيل خارج دمشق، وعندما جاءه الخبر أمر بعزل الشيخ ابن عبد السلام من خطبة الجمعة ومن سائر وظائفه، واعتقاله مع صاحبه الشيخ ابن الحاجب المالكي لاشتراكه معه في هذا الإنكار، ثم لما قدم دمشق أمر بالإفراج عنهما، وفرض الإقامة الجبرية علىٰ العز بن عبد السلام.

إذا شئنا الحديث عن وظائف العز بن عبد السلام التي عُزل عنها بلغة هذا العصر، فهي: وزارة المعارف، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ووزارة الإعلام، أو معظم أقسام هذه الوزارات، وهذا مما لا يطمع به أي عالم من علماء السلاطين اليوم، ومع ذلك

---

(١) أكثر من هذا يحدث اليوم في كل بلد إسلامي، ولا نجد عالمًا واحدًا من كبار علماء السلاطين يقفون الموقف الذي وقفه العز بن عبد السلام فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فهو لم يتردّد في التخلّي عنها إرضاءً لله سبحانه وتعالىٰ. يقول تلميذه القُرافي أنّ بعض أرباب الدولة كتب إليه يحضّه علىٰ الاجتماع بملك وقتهم، والتردد إليه ليكون ذلك مقيمًا لجاهه وكابتًا لعدوه، فقال: (قرأت العلم لأكون سفيرًا بين الله وبين خلقه، وأتردّد إلىٰ أبواب هؤلاء؟!).

ولما كان التطبيق العملي يبيِّن معادن الرجال، ويكشف ما تُكنّه الصدور، فإن ردّ العزّ بن عبد السلام علىٰ بعض خواص السلطان الذين جاؤوه يعرضون عليه الاعتذار مقابل العودة إلىٰ وظائفه المغرية خير دليل علىٰ أنه يُتبع القول العمل.

قالوا له: (بينك وبين أن تعود إلىٰ مناصبك وما كنت عليه أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير).

قال: (والله ما أرضاه أن يقبّل يدي فضلاً عن أن أقبّل يده. يا قوم أنتم في واد، وأنا في واد، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به).

قالوا: (يا شيخ لقد رسم لنا أن توافق علىٰ ما يطلب منك، وإلا اعتقلناك).

قال: (افعلوا ما بدا لكم)، ثم أخذوه معتقلاً في خيمة مجاورة لخيمة السلطان.

ولما وقعت الحرب بين الأخوين، وأسفرت عن انتصار السلطان نجم الدين أيوب علىٰ السلطان إسماعيل وحلفائه الصليبيين. ونجا الشيخ ابن عبد السلام من الأسر، ثم دخل مصر معزّزًا مكرّمًا، وتولّىٰ منصب قاضي القضاة فيها... ولكن: هل أخلد الشيخ للراحة، وشغله منصبه الرفيع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وعنده مسوّغات كثيرة لو شاء اتخاذ مثل هذا القرار.

يقول السُّبكي: (لم يثبت عند الشيخ أن أمراء الدولة الأتراك أحرار، ولهذا فإن حكم الرّق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، وقام الشيخ بإبلاغهم ذلك).

استشاط نائب السلطنة غضبًا، وركب بنفسه في جماعته، وجاء إلىٰ بيت الشيخ، ثم طرق بابه وسيفه مسلول بيده، فخرج ولد الشيخ، وهاله ما رأىٰ، فعاد إلىٰ أبيه وشرح له الحال، فما اكترث الشيخ لذلك ولا تغيّر، وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله، ثم خرج، فسقط السيف من يد نائب السلطنة عندما وقع بصر الشيخ عليه، وأرعدت مفاصله، فبكىٰ النائب، وسأل الشيخ أن يدعو له، ثم قال: (يا سيدي خير، أي شيء تعمل؟...). قال: (أنادي عليكم وأبيعكم). قال: (ففيمَ تصرف ثمننا؟). قال: (في مصالح المسلمين)، قال: (من يقبضه؟). قال: (أنا).

وأخيرًا فقد تمّ للشيخ ما أراد حيث نادىٰ علىٰ الأمراء واحدًا واحدًا، وغالىٰ في ثمنهم، وقبضه وصرفه في وجوه الخير. رحم الله سلطان العلماء، وجزاه عن الإسلام والمسلمين كل خير[1].

موقف شيخ الإسلام ابن تيمية

توسّعت قليلاً في عرض المواقف المهمّة لشيخ الإسلام ابن تيمية لسببين:

الأول: نحن وكثير من المخالفين الذين يتمسّكون بالمنهج السلفي متفقون علىٰ أنه

(١) اختصرت الروايات التي تحدّثت عن بيع الشيخ لمماليك مصر، والمصادر التي اعتمدت عليها هي: ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلىٰ السلاطين للسيوطي، وطبقات الشافعية للسُّبكي: (٥/ ٨٤)، والسلوك للمقريزي: (١/ ٣٠٣)، وفوات الوفيات: (١/ ٥٩٦)، والإسلام بين العلماء والحكام، لعبد العزيز البدري.

لم يبرز في القرون التي تلت عصر ابن تيمية إمام مثله، ولم نقرأ لمخالفينا هؤلاء ردًّا علميًّا ينقض هذه المواقف، وكل الذي نعرفه إعجابهم بها وتقديرهم لها، والاستشهاد بها فيما يكتبون ويدرسون.

الثاني: هناك تشابه بين عصرنا وعصر شيخ الإسلام، ففي العصرين تعرضت بلدان العالم الإسلامي لهجمات صليبية ووثنية باطنية أسفرت عن احتلال بلداننا.

فمن مواقفه المهمة:

١ – موقفه من قازان: أسلم قازان، وتسمىٰ بمحمود، وكان يشهد الجمعة، وأسلم معه خلق كثير من التتار، وكان في جيشه وعّاظ ومصلحون، وكان للصالحين من المسلمين عندهم قدر. قال صاحب خطط الشام: (.. قال صاحب التتر: إنه حارب حاكم مصر والشام لأنهم خارجون عن طريق الدين غير متمسكين بأحكام الإسلام ... هذا هو قازان [١] الذي أصدر بحقه وحق جيشه فتواه المشهورة، أما عن لقائه مع قازان وماذا قال له؟ يقول الشيخ عمر ابن أبي بكر البالسي وهو أحد أعضاء الوفد:

(قال شيخ الإسلام للترجمان قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك مؤذنون وقاض وإمام وشيخ علىٰ ما بلغنا، فغزوتنا وبلغت بلادنا علىٰ ماذا؟ وأبوك وجدّك هولاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت).

(١) قازان بهذه الصفات التي توفرت فيه أحسن دينًا من أكثر الحكام المعاصرين، وبشكل أخص الذين يمنعون الحجاب الشرعي في المعاهد والجامعات وسائر مؤسسات الدولة، أو الذين يمنعون بعض المظاهر الشرعية، أو الذين يضطهدون كل من يطالب بتحكيم شرع الله، وغير ذلك كثير.

قال -أي البالسي-: (وقرّب إلىٰ الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ قال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس، قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لله فانصره وأيّده وملِّكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياءً وسمعةً وطلبًا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمّره واقطع دابره).

قال البالسي: وقازان يؤمّن علىٰ دعائه، ويرفع يديه. قال:

فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن تتلوّث بدمه إذا أمر بقتله، قال: فلما خرجنا من عنده قال قاضي القضاة نجم الدين بن صصري وغيره:

(كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم، قال: فانطلقنا عصبةً وتأخّر هو في خاصّة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبرّكون بدعائه، وهو سائر إلىٰ دمشق، وينظرون إليه، قال: والله ما وصل دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم).[1]

٢- جهاده: كان -رحمه الله- عالمًا مجاهدًا شجاعًا لا يخشىٰ الموت، يقول الإمام

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٨٩) كما روىٰ هذا الخبر الشيخ كمال الدين بن أنجا في الكواكب الدرية، وكان ممن صحب شيخ الإسلام في لقائه مع قازان، وقال ابن كثير بعد أن ساق رواية البالسي: (وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره).

محمد ابن عبد الهادي عن قتال الشيخ في معركة [**شقحب**] المشهورة:

(وبقي الشيخ ﷺ هو وأخوه وأصحابه ومن معه من الغزاة قائمًا بظهوره وجهاده ولَأُمة حربه، يوصي الناس بالثبات ويعدهم بالنصر، ويبشرهم بالغنيمة، والفوز بإحدىٰ الحسنيين إلىٰ أن صدق الله وعده، وأعزّ جنده، وهزم التتار وحده، ونصر المؤمنين...).

(ودخل جيش الإسلام المنصور إلىٰ دمشق المحروسة والشيخ في أصحابه شاكيًا في سلاحه، داخلاً معهم، عاليًا كلمته، حجته قائمة، ظاهرة ولايته، مقبولة شفاعته... وهو مع ذلك يقول للمدّاحين له: أنا رجل ملّة، لا رجل دولة).

ويقول أيضًا: (ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين، أمير من أمرائهم، ذو دين متين، وصدق لهجة معروفة في الدولة، قال: قال لي الشيخ يوم اللقاء، ونحن بمرج الصُّفّر، وقد تراءىٰ الجمعان: يا فلان أوقفني موقف الموت.

قال: فسقته إلىٰ مقابلة العدوّ، وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم، ثم قلت له: يا سيدي، هذا موقف الموت، وهذا العدوّ قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد.

قال: فرفع طرفه إلىٰ السماء، وأشخص بصره، وحرّك شفتيه طويلاً، ثم انبعث وأقدم علىٰ القتال. وأما أنا فخيّل إلي أنه دعا عليهم وأن دعاءه استّجيب منه في تلك الساعة.

قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته، حتىٰ فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلىٰ جبل صغير، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة وكان آخر النهار.

قال: وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلىٰ صوتيهما، تحريضًا علىٰ القتال، وتخويفًا

للناس من الفرار.

فقلت: يا سيدي، لك البشارة بالنصر. فإنه قد فتح الله ونصر، وهاهم التتار محصورون بهذا السفح. وفي غد إن شاء الله تعالىٰ، يُؤخذون عن آخرهم.

قال: فحمد الله تعالىٰ، وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ودعا لي في ذلك الموطن دعاءً وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده).

بعد هذا الانتصار الفاصل كان لا بدّ للمسلمين المجاهدين من تأديب النصارىٰ، والنصيريين، والرافضة، والإسماعيليين الذين غدروا بالمسلمين، وقدّموا جميع أنواع الدعم للغزاة، كما تعاونوا من قبل مع جحافل الغزاة الصليبيين، وسوف تبقىٰ الجبهة الداخلية ضعيفةً ومفكّكةً إذا ترك الحبل علىٰ غاربه لهؤلاء الخونة العملاء. لاسيما وأن شيخ الإسلام ابن تيمية -وهو الخبير بأساليب الباطنيين- يعلم حق العلم أن الرافضي الخبيث ابن العلقمي -وزير المستعصم بالله المستنصر آخر الخلفاء العباسيين- استغل ثقة الخليفة به، فقام بدور لا مثيل له في تاريخنا الإسلامي: فهو من جهة كان يراسل [هولاكو] الوثني قائد جيش التتار بعد احتلاله لإيران ويحرّضه علىٰ احتلال بغداد، ومن جهة أخرىٰ فقد أشار علىٰ المستعصم المثول بين يدي هولاكو عندما اقتربت جيوشه من عاصمة الإسلام، ومن جهة ثالثة فقد أقنع القائد التتري بقتل الخليفة، ففعل وقتل معه سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء وسائر أعيان الدولة وأركانها عندما مثلوا بين يديه. ثم دخل طاغية التتار بغداد يتقدّمهم الرافضي ابن العلقمي. وزميله الرافضي نصير الدين الطوسي الذي اتخذه هولاكو ليكون في خدمته كالوزير المشير... وفي بغداد قتل التتار كل من قدروا عليه: من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل

كثير من الناس في الآبار، وقنىٰ الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون في الحانات ويغلقون عليهم الأبواب، فيفتحها التتار إمّا بالكسر وإمّا بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلىٰ أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتىٰ يجري الميازيب من الدماء بالأزقة.(١)

وقعت هذه المذبحة عام ٦٥٦هـ، ولهذا فقد قدم والد شيخ الإسلام إلىٰ دمشق ومعه ولداه عام٦٦٧هـ ... فكيف ينتظر من عالم مثل ابن تيمية ألا يستفيد من هذا الدرس المرير؟!

وهاهنا يبرز أمام الباحث الذي يستعرض النصوص التاريخية سؤال يدعو إلىٰ الحيرة والدهشة:

هل كان شيخ الإسلام ابن تيمية سلطانًا حاكمًا في بلاد الشام أم هو عالم اعتزل الوظائف ولم يتقلّد أي منصب طوال سِنيّ عمره؟!

ينقل ابن عبد الهادي عن الأمير الحاجب قوله:

(ثم لم يزل الشيخ بعد ذلك علىٰ زيادة في الحال والقال والجاه، والتحقيق في العلم، حتىٰ حرّك الله عزمات نفوس ولاة الأمر لقتال أهل جبل كسروان. وهم الذين بغوا وخرجوا علىٰ الإمام، وأخافوا السبل وعارضوا المارّين بهم من الجيش بكل سواء).

(فقام الشيخ في ذلك أتمّ قيام، وكتب إلىٰ أطراف الشام في الحثّ علىٰ قتال المذكورين، وأنها غزاة في سبيل الله.

---

(١) البداية والنهاية (أحدث سنة ٦٥٦ه -١٣/ ٢٠٠) مع الاختصار والتصرف اليسير.

ثم تجهّز هو بمن معه لغزوهم بالجبل، صحبه ولي الأمر نائب المملكة المعظمة، أعزّ الله نصره، والجيوش الشامية المنصورة، وما زال مع ولي الأمر في حصارهم وقتالهم، حتىٰ فتح الله الجبل، وأجلىٰ أهله. وكان من أصعب الجبال، وأشقها ساحةً. وكانت الملوك المتقدّمة لا تقدم علىٰ حصاره، مع علمها بما عليه أهله من البغي والخروج علىٰ الإمام والعصيان، وليس إلا لصعوبة المسلك، ومشقة النزول عليهم).

(وكان فتحه أحد الكرامات المعدودة للشيخ، لسببين علىٰ ما يقوله الناس:

أحدهما: لكون أهل هذا الجبل بغاة رافضة سبّابة تعيّن قتالهم.

والثاني: لأن جبل الصالحية لما استولت الرافضة عليه -في حال استيلاء الطاغية قازان- أشار بعض كبرائهم بنهب الجبل، وسبي أهله وقتلهم، وتحريق مساكنهم، انتقامًا منهم لكونهم سنّيّة، وسماهم ذلك المشير: نواصب، فكان ما كان من أمر جبل الصالحية بذلك القول، وتلك الإشارة).

(قالوا: فكوفئ الرافضة بمثل ذلك، بإشارة كبير من كبراء أهل السُّنة وزنًا بوزن، جزاءً علىٰ يد وليّ الأمر، وجيوش الإسلام. والمشير المذكور: هو الشيخ[1] المشار إليه).

(ولما فتح الجبل، وصار الجيش بعد الفتح إلىٰ دمشق المحروسة عكف خاصّ الناس وعامّهم علىٰ الشيخ بالزيارة والتسليم عليه، والتهنئة بسلامته، والمسألة له منهم عن كيفية الحصار للجبل، وصورة قتال أهله، وعما وقع بينهم وبين الجيوش من المراسلات، وغيرها، فحكىٰ الشيخ ذلك).

---

(١) أي الرافضي نصير الدين الطوسي.

(وكان توجه الشيخ تقيّ الدين ﷺ إلىٰ الكسروانيين في مستهلّ ذي الحجة من سنة أربع وسبعمائة وصحبه الأمير قراقوش، وتوجّه نائب السلطنة، الأمير جمال الدين الأفرم، بمن تأخّر من عسكر دمشق إليهم، لغزوهم واستئصالهم في ثاني شهر المحرم من سنة خمس وسبعمائة، وكان قد توجّه قبله العسكر، طائفة بعد طائفة في ذي الحجة).

(وفي يوم الخميس سابع عشر وصل النائب والعسكري معه إلىٰ دمشق، بعد أن نصرهم الله تعالىٰ علىٰ حزب الضلال من الروافض والنصيرية وأصحابها العقائد الفاسدة، وأبادهم الله من تلك الأرض، والحمد لله رب العالمين).[1]

٣- أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر: يتحدث ابن كثير عن هزيمة المسلمين أمام قازان، وجيشه في سنة تسع وتسعين وستمائة فيقول:

(ولّىٰ السلطان هاربًا فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وقُتل جماعة من الأمراء وغيرهم ... وكان أهل دمشق في خوف شديد علىٰ أنفسهم وأهليهم وأموالهم... وهرب جماعة من أعيان البلد وغيرهم إلىٰ مصر، كالقاضي إمام الدين الشافعي، وقاضي المالكية الزواوي، وتاج الدين الشيرازي، وعلم الدين الصوابي والي البر، وجمال الدين بن النحاس والي المدينة، والمحتسب وغيرهم من التجار والعوام، وبقي البلد شاغرًا ليس فيه حاكم سوىٰ نائب القلعة).

(وفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول كسر المحبوسون بحبس باب الصغير الحبس وخرجوا منه علىٰ حميّة، وتفرّقوا في البلد، وكانوا قريبًا من مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه، وجاؤوا إلىٰ باب الجابية فكسروا أقفال الباب البرّاني وخرجوا إلىٰ بر البلد... ثم

(١) الكواكب الدريّة (١٨٢)، ومنه نقلت ما كتبته عن جهاد شيخ الإسلام في موقعة شقحب.

يتحدث عن كسر أبواب البساتين، وقلع الأبواب والشبابيك، وعن غلاء الأسعار وغير ذلك).[١]

تلفتت دمشق في تلك الأيام العصيبة، فلم تجد إلا عالمها الشجاع ابن تيمية، الذي أرسل إلىٰ نائب القلعة من يقول له: لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت، وعندما أقبل علماء السوء نحو قازان يخطبون له علىٰ المنابر، ويحظون بشيء من ذهبه وفضته، كان شيخ الإسلام مشغولاً بما يدخل الأمان علىٰ قلوب الناس الخائفين، وما كان يفكّر بخاصّة نفسه، فهو من جهة يحاول مقابلة قازان مرةً أخرىٰ لأخذ الأمان منه، وعندما يحجبه عنه وزيره، يكرّر المحاولة بعد ارتحال قازان عن بلاد الشام، وينجح في مقابلة نائبه [**أمير بولائي**] وتمكّن من استنقاذ كثير من أسرىٰ المسلمين، وكان من بين الذين استنقذهم الأسرىٰ من الشاميين الذميين.

ومن جهة أخرىٰ يدور كل ليلة علىٰ الأسوار يحرّض الناس علىٰ الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط.

وفي جميع أحواله -سواء كانت دمشق تخضع لسيطرة التتار أم لسيطرة سلطان المسلمين- كان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر.

ففي سنة تسع وتسعين وستمائة وقبل قدوم العساكر المصرية بأيام دار الشيخ تقي الدين ابن تيمية وأصحابه علىٰ الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشقّقوا الظروف وأراقوا الخمور، وعزّروا جماعةً من أهل الحانات المتّخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك.

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ١٤) باختصار.

وفي سنة إحدىٰ وسبعمائة ثار جماعة من الحسدة علىٰ الشيخ تقي الدين ابن تيمية وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزّر ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضًا فيمن يشكو منه ذلك، وبيّن خطأهم، ثم سكنت الأمور.

وفي سنة أربع وسبعمائة أُحضر إلىٰ الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخ كان يلبس دلقًا كبيرًا متسعًا جدًّا يسمىٰ المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق فتناهبه الناس من كل جانب وقطعوه حتىٰ لم يدعوا فيه شيئًا وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلّم أظافره وكانوا طوالاً جدًّا، وحف شاربه المسبل علىٰ فمه المخالف للسُّنة، واستتابه من كلام الفحش وأكل ما يغيّر العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرّمات وغيرها.

وبعده استحضر محمد الخباز البلاسي فاستتابه أيضًا عن أكل المحرّمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوبًا ألا يتكلم في تعبير المنامات ولا في غيرها بما لا علم له به. وفي هذا الشهر[1] بعينه راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلىٰ مسجد التاريخ وأمر أصحابه ومعهم حجّارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تُزار ويُنذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهةً كان شرّها عظيمًا، وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة وكذلك بكلامه بابن العربي وأتباعه فحُسد علىٰ ذلك وعُودي، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم، ولا بالىٰ، ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه الحبس مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجّه لهم عليه ما يشين وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه كما سيأتي، وإلىٰ الله إياب الخلق وعليه حسابهم).

أما المحن التي ابتلىٰ بها الشيخ رحمه الله بسبب مواقفه واجتهاداته، فنشير فيما يلي

---

(١) شهر رجب من عام: ٧٠٤هـ.

لأهمها:

في سنة٧٠٥ه حبُس أيامًا في برج بمصر، ثم نقل منه ليلة العيد إلىٰ الحبس المعروف بالجبّ، هو وأخوه شرف الدين عبد الله، وخرج من هذا السجن سنة٧٠٧ه، ثم أعيد إلىٰ السجن-حبس القضاة- في شوال سنة٧٠٧ه، وانتهت هذه المحنة بعودة السلطان ناصر بن قلاوون إلىٰ الحكم في ١٣ من شعبان ٧٠٩ ه، وكان الإفراج عن ابن تيمية في ٨ شوال ٧٠٩ه، وعندما استفتاه السلطان في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكّلموا فيه، فقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارًا، فقال: من آذاني فهو في حلّ.

وفي يوم الخميس ثاني عشرين رجب من سنة عشرين وسبعمائة عقد مجلس بدار السعادة للشيخ تقي الدين ابن تيمية بحضرة نائب السلطنة، وحضر فيه القضاة والمفتون من المذاهب، وحضر الشيخ وعاتبوه علىٰ العود إلىٰ الإفتاء بمسألة الطلاق ثم حُبس في القلعة فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، ثم ورد مرسوم من السلطان بإخراجه يوم الاثنين -يوم عاشوراء- من سنة إحدىٰ وعشرين وسبعمائة.

(وفي السابع من شعبان ٧٢٦ه صدر مرسوم بحبسه بسبب فتواه بعدم جواز شدّ الرحال لزيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقبور الصالحين، وبعد أيام أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين.

وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، توفي شيخ الإسلام ابن تيمية بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوسًا بها).[1]

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٤-١٣٥) والكواكب الدرية.

عجز كيد المرجفين وعداوة الحاسدين وخشونة سجون الظالمين، عن النيل من شموخ شيخ الإسلام ابن تيمية وعلو همته، وأشهد بأنّي ما وجدتُ في أقوال العلماء الأئمة مثل تفسيره للمحن والابتلاءات، يقول رحمه الله:

(ما يصنع أعدائي بي، أنا جنّتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في مجلسه في القلعة:

لو بذلت ملء الأرض ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم علىٰ ما تسبّبوا لىٰ فيه من الخير ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس:

(اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله. وقال لي مرّةً [1]: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه، ولما أدخل ووصل إلىٰ القلعة وصار داخل سورها، نظر إليه وقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحديد:١٣]، وعلم الله ما رأيت -ما يزال الكلام لابن القيم- أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه، وكنا إذا اشتدّ بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو

(١) هذا النص كان يرويه عنه تلميذه ابن قيم الجوزية الذي كان محبوسًا معه في سجن القلعة.

إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، فينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً).[١]

ومن شجاعته وترفّعه عن التقرّب إلىٰ أولي النهي والسلطان ما حكاه في الكواكب قال:

(لما وشوا به إلىٰ السلطان الأعظم الملك الناصر لدين الله، وأحضره بين يديه قال من جملة كلامه: إنني أُخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك، فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت، وصوت عال سمعه كثير من حضر:

أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسًا، فتبسّم السلطان لذلك وأجابه في مقابلة بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة:إنك والله لصادق، وإن الذي وشىٰ بك إليّ لكاذب، واستقرّ له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فُتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يُلقىٰ إليه في حقّه من أقاويل الزور والبهتان، ممن ظاهر حاله العدالة، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة).[٢]

لقد كان السلطان يعلم من سيرة هذا الشيخ ومن مواقفه المجرّدة من الأهواء والمنافع أن ملكه وملك المغول لا يساوي عند ابن تيمية فلسًا، فكيف بما هو أدنىٰ من ذلك كمنصب وزير أو قاضي القضاة أو غير ذلك؟، أما شيخ الإسلام فما كان يبالي بما سيفعله السلطان عندما ردّ عليه هذا الرد الحاسم.

إن أمةً يبرز فيها أمثال ابن تيمية لا بدّ وأن تتبوّأ مكانتها القيادية المرموقة، وإذا تعرّضت

---

(١) الكلم الطيب والعمل الصالح، لابن القيم [عن كتاب حياة شيخ الإسلام ابن تيمية لمؤلفه محمد بهجت البيطار].

(٢) حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، للشيخ محمد بهجت البيطار، ص(١٥).

لانتكاسة كما حدث في غزو التتار، فإن فشلها إلىٰ نجاح، وهزيمتها إلىٰ نصر بإذن الله، فليتق الله الذين يبرّرون تخاذلهم بشواهد يستدلون بها من أقوال شيخ الإسلام، أو فليبيّنوا لنا كيف يقرؤون ويفهمون هذه المواقف التي عرضناها؟

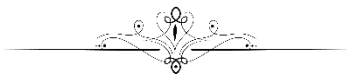

الفصل الثاني:
الخير كل الخير في اتّباع علماء السلف

- المبحث الأول: أوضاع بلدنا أفضل مما هي عليه في البلدان الأخرىٰ.
- المبحث الثاني: الخصال التي يجب توافرها في المفتي.
- المبحث الثالث: من هدي علماء السلف اعتزال مجالس السلاطين.
- المبحث الرابع: التذكير بمنهج الاستدلال عند أهل السُّنة.

أوضاع بلدنا أفضل مما هي عليه في البلدان الأخرى

يقولون: إنّ الأوضاع العامة في بلدنا رغم وجود بعض الأخطاء والانحرافات أفضل مما هي عليه في البلدان المجاورة، بل من الظلم مقارنة هذا بذاك، والواجب شكر الله علىٰ نعمه الكثيرة التي أنعم بها علينا، ونسأله جلّ وعلا أن يجنّبنا الخلافات والفتن والحروب التي تشهدها البلدان الأخرىٰ.

وقولهم هذا عائم وغير منضبط بالضوابط الشرعيّة، وفيه حيْدة ظاهرة عن الحق، ومن الدلائل علىٰ ذلك أن بعض العلماء والدعاة في كل بلد يستطيعون ترديد مثل هذا الادعاء، ولا يعدمون ميزةً يمتازون بها عن غيرهم، وتدفعهم إلىٰ الافتخار بها.

ومن جهة أخرىٰ فقد يكون في البلد المفضول قدر من الحرية يسمح بنقد المسؤولين وبيان أخطائهم، ثم تنتشر هذه الأخطاء والمفاسد في وسائل الإعلام ويتحدّث بها القاصي والداني، في حين تنعدم هذه الحرية في البلد الفاضل -حسب ادعائهم- ولا تجرؤ وسائل الإعلام علىٰ نقد أحد كبار المسؤولين، ومن يفعل مثل هذه الجريمة فإنه معرّض لأية عقوبة، وقد تبلغ حدّ الموت. أما إذا اطمأن المواطنون في مجالسهم الخاصة، وداخل الأبواب المغلقة، وأمنوا شرّ الجواسيس، فيتحدثون عن أضعاف المفاسد التي تشهدها البلدان الأخرىٰ، ثم لا بد بعد ذلك أن تبقىٰ بعض الانحرافات المجهولة التي لا يعرف الناس عنها شيئًا.

ومن جهة ثالثة فقد يكون نقد البلدان الأخرىٰ وسيلةً من وسائل تجنيد الدولة لهذا النوع من الدعاة في حملتها الدعائية المعادية لهذه الدولة، وليس للدعوة الإسلامية أية

فائدة من هذه المهاترات الشخصية الفاجرة.

ومن جهة رابعة فقد يكون الحال في بلد من البلدان أفضل حالاً مما هو عليه في البلدان الأخرىٰ، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة لا تُعفي العلماء والدعاة من وجوب إنكار المنكر في بلدهم، وبيان حكمها الشرعيّ، وهم آثمون إذا لم ينهضوا بما أوجبه الله عليهم، ولندلّل علىٰ ذلك بالمثال الآتي: لنفترض أن السلطان في البلد الفاضل أصدر مرسومًا تشريعيًّا يسمح بإقامة بنوك ربوية، وينظّم مقدار الفائدة، وبموجب هذا القانون أصبحت هذه البنوك بأبنيتها الشاهقة مَعلمًا من معالم المدن داخل البلد المشار إليه، ويستطيع أيّ باحث لهذه المسألة أن يتوصل لمعلومات دقيقة عن تعامل هذه الدولة: مع صندوق النقد الدولي، ومع البنوك العالمية والمحلية، وعن مقدار الاستثمارات الربوية في البنوك الغربية وغيرها.

ولنفترض أن العلماء قابلوا السلطان، وتحدّثوا معه بطريقة مهذّبة عن عيوب هذا المرسوم ومخالفته لشرع الله، ثم وعدهم كعادته خيرًا، ومرّت الأيام والأعوام دون أن يروا بصيصًا من هذا الخير الذي وعدهم به، وهم يرون أنه ليس من اللائق أن يكلّموه مرّةً أخرىٰ بالمسألة نفسها لأنهم يخشون الفتنة!! وما يعجز غيرهم عن أخذه بالقوة هم قادرون علىٰ أخذه بالحسنىٰ، ولهذا فقد عادوا يطلبون إليه إصدار مرسوم يسمح بإقامة بنوك إسلامية، كما هو الحال في بعض البلدان العربية الأخرىٰ التي يكثرون من الحديث عما فيها من الفتن والمفاسد، أو كما هو الحال في بعض الدول الأوروبية الكافرة التي سمحت بقيام هذا النوع من البنوك، ثمّ وعدهم سلطانهم خيرًا، ولكن هذا الوعد كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.

وزيادةً علىٰ إخلافه بالوعد فقد وردت العلماء معلومات وفيرة تؤكد عداوة هذا

السلطان للبنوك الإسلامية، وسعيه الحثيث من أجل وصول هذه المشاريع الإسلامية إلىٰ طريق مسدود، ولهذا فهو يحرّك أشباه المثقفين إعلاميًّا ضدّها، ويحذّر أكثر الحكام الذين يلتقي بهم من الأصولية(!!) التي تقف وراء هذه البنوك.

والسؤال المطروح:

ما الحكم الشرعيّ في هذه المسألة؟ وما الذي يجب علىٰ العلماء فعله؟

الجواب: فصّل علماؤنا القول في أمثال هذه المسألة، ولندع الجواب فيما يلي لشيخ الإسلام ابن تيمية، يقول رحمه الله:

(كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين؛ وإن تكّلمت بالشهادتين، فإذا أقرّوا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتىٰ يصلوا، وإن امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم حتىٰ يؤدوا الزكاة، وكذلك إن امتنعوا عن صيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق. وكذلك إن امتنعوا عن تحريم الفواحش، أو الربا، أو الميسر، أو الخمر، أو غير ذلك من محرّمات الشريعة. وكذلك إن امتنعوا عن الحكم في الدماء والأموال والأعراض والأبضاع ونحوها بحكم الكتاب والسُّنة. وكذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار إلىٰ أن يسلموا ويؤدّوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وكذلك إن أظهروا البدع المخالفة للكتاب والسُّنة وأتباع سلف الأمة وأئمتها؛ مثل أن يظهروا الإلحاد في أسماء الله وآياته، أو التكذيب بأسماء الله وصفاته، أو التكذيب بقدره وقضائه، أو التكذيب بما كان عليه جماعة المسلمين حتىٰ يدخلوا في طاعتهم التي توجب الخروج عن شريعة الإسلام، وأمثال هذه الأمور، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [سورة البقرة:١٩٣]، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتىٰ يكون الدين كله لله. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [سورة البقرة:٢٧٨]، وهذه الآية نزلت في أهل الطائف، وكانوا قد أسلموا وصلّوا وصاموا، لكن كانوا يتعاملون بالربا، فأنزل الله هذه الآية، وأمر المؤمنين فيها بترك ما بقي من الربا وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [سورة البقرة:٢٧٩]، وقد قُرئ (فأذنوا) و(آذنوا)، وكلا المعنيين صحيح. والربا آخر المحرّمات في القرآن، وهو مال يؤخذ بتراضي المتعاملين، فإذا كان من لم ينته عنه محاربًا لله ورسوله، فكيف بمن لم ينته عن غيره من المحرّمات التي هي أسبق تحريمًا وأعظم تحريمًا).[1]

قلت: هذا هو الحكم الشرعيّ في هذه المسألة التي سقناها علىٰ شكل افتراض، مع أنها حقيقة ناصعة البيان، ولهذا فقد قاتل الصحابة رضوان الله عليهم القبائل التي امتنعت عن دفع الزكاة لأبي بكر قتال ردّة لا قتال بغي، وهذا مع إقرارهم بالصلاة وغيرها من أركان الإسلام سوىٰ الزكاة.

أما عن واجب العلماء، فليس المطلوب منهم القتال أو الإفتاء بالخروج [2]، لأن الخروج لا يكون إلا عند توفر شروط منها: استفراغ النصح، ومنها: الاستطاعة، بل المطلوب منهم بيان الحكم الشرعيّ في مثل هذه المسألة، وهذا الذي ذهب إليه الإمام النووي رحمه الله في قوله الذي ردّ به علىٰ السلطان:

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، مطابع الرياض: (٢٨/ ٥١٠).

(٢) سوف نعود -إن شاء الله- إلىٰ الحديث عن مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية.

(وأما أنا في نفسي، فلا يضرّني التهديد، ولا أكثر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب عليّ وعلىٰ غيري، وما ترتب علىٰ الواجب؛ فهو خير وزيادة عند الله تعالىٰ؛﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة غافر:٣٩]، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة غافر:٤٤]، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول بالحق حيث ما كنا وأن لا نخاف في الله لومة لائم).

وقوله رحمه الله: (وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها).

وإيضاح الأحكام لا بدّ أن يطّلع عليه الناس، لأن السلطان لا يفتأ يردّد عبر أجهزة إعلامه أن مراسيمه وقوانينه كلها شرعية باتفاق العلماء، ومن جهة أخرىٰ فإن بعض المنسوبين إلىٰ العلم بدؤوا يفتون ويكرّرون أقولاً شاذةً سبقهم إليها بعض العلماء، وخلاصتها أن يسير الربا حلال ولا شبهة فيه، أو أنّ البنوك الربوية وصندوق النقد الدولي من الضرورات في هذا العصر والضرورات تبيح المحظورات.

وحاجة الناس ملّحة إلىٰ معرفة الحكم الشرعيّ في هذه المسألة حتىٰ لا يسقطوا في الفتنة فيتعرّضوا لحرب الله ورسوله، ومن العبث أن ينشغل العلماء في هذه الحالة بشؤون البلدان الأخرىٰ التي يرتع فيها الفساد أضعافًا مضاعفةً، ويسكتوا عما يجري في بلدهم، وهو بالتأكيد ليس قاصرًا علىٰ مرسوم تنظيم أعمال البنوك الربوية، وهم يعرفون ذلك جيّدًا، ولا يجوز لأحد منهم الاعتذار بالجهل، وسكوتهم لا يبرئ ذمتهم أمام الله تعالىٰ.

وإذا كانوا يخشون من دفع هذا المنكر بمنكر أشدّ، فليبيّنوا ذلك وليحذروا من الفوضىٰ والتخبط والغلوّ، وسوف يطيعهم الناس في الأولىٰ والثانية.

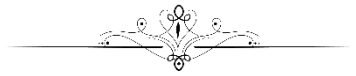

الخصال التي يجب توافرها في المفتي

جاء في كتاب إعلام الموقعين ما يلي:

(ذكر أبو عبد الله بن بطة في كتابه في الخلع عن الإمام أحمد أنه قال: لا ينبغي للرجل أن ينصّب نفسه للفُتيا حتىٰ يكون فيه خمس خصال:

الأولىٰ: أن تكون له نيّة، فإن لم يكن له نيّة لم يكن عليه نور ولا علىٰ كلامه نور.

الثانية: أن يكون له علم وحلم ووقار وسكينة.

الثالثة: أن يكون قويًّا علىٰ ما هو فيه وعلىٰ معرفته.

الرابعة: الكفاية وإلا مضغه الناس.

الخامسة: معرفة الناس.

وهذا مما يدل علىٰ جلالة أحمد ومحلّه من العلم والمعرفة؛ فإن هذه الخمسة هي دعائم الفتوىٰ، وأيّ نقص منها ظهر الخلل في المفتي بحسبه).[1]

وعلماء السلطان لا تتوفّر فيهم هذه الخصال الخمس، وسأنقل فيما يلي كلام ابن القيم في شرحه لهذه الخصال، ثم أعلّق عليها:

١- يقول عن النيّة: (فكم بين مريد بالفتوىٰ وجه الله ورضاه والقرب منه وما عنده، ومريد بها وجه المخلوق ورجاء منفعته وما يناله منه تخويفـًا أو طمعـًا!).

٢&٣- (فليس صاحب العلم والفُتيا إلىٰ شيء أحوج منه إلىٰ الحلم والسكينة

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية (٤/ ١٩٩).

والوقار... فبالعلم تنكشف له مواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وبالحلم يتمكّن من تثبيت نفسه عند الخير فيؤثره ويصبر عليه).

ويقول عن السكينة: (هي طمأنينة القلب واستقراره وأصلها في القلب، ويظهر أثرها علىٰ الجوارح... وهذه السكينة هي التي حصلت لإبراهيم الخليل وقد أُلقي في المنجنيق مسافرًا إلىٰ ما أضرم له أعداء الله من النار... وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلىٰ صاحبه عدوّهما وهما في الغار فلو نظر أحدهم إلىٰ تحت قدميه لرآهما).

وعن الأسباب المؤدية إلىٰ السكينة يقول:

(استيلاء مراقبة العبد لربه جلّ جلاله حتىٰ كأنه يراه، وكلما اشتدّت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها).

وعن العلم يقول: (أن يكون مستظهرًا بالعلم متمكّنًا منه، وغير ضعيف فيه؛ فإنه إذا كان ضعيفًا قليل البضاعة غير مضطلع به أحجم عن الحق في موضع ينبغي فيه الإقدام لقلة علمه بمواضع الإقدام والإحجام، فهو يقدم في غير موضعه، ويحجم في غير موضعه).

٤- ويقول عن الكفاية: (فإنه إذا لم يكن له كفاية احتاج إلىٰ الناس وإلىٰ الأخذ مما في أيديهم، فلا يأكل منهم شيئًا إلا أكلوا من لحمه وعرضه أضعافه، وقد كان لسفيان الثوري

شيء من مال، وكان لا يتروّىٰ في بذله ويقول: لولا ذلك لتمندل[١] بنا هؤلاء).

٥- ويقول عن معرفة الناس: (ينبغي أن يكون فقيهًا في معرفة مكر الناس وخداعهم واحتيالهم وعوائدهم وعرفياتهم، فإن الفتوىٰ تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والعوائد والأحوال).[٢]

قلت: منذ حوالي نصف قرن كان للعلماء شيء من الاستقلالية، وكانوا يشاركون السلطان في اختيار المفتي وكبار القضاة، أما اليوم فقد أصبحت حالنا غير تلك الحال: لقد انفرد السلطان في تعيين المفتي وكبار وصغار المسؤولين في شؤون الإفتاء والقضاء والأوقاف، ولا بد أن يحوي قرار التعيين الصيغة التالية:

(نحن -يذكر اسم الرئيس أو الملك- بناء علىٰ المادة (...) من الدستور نرسم أو نأمر بما هو آت).

فهذا السلطان الذي رفع من يريد من العلماء هو نفسه الذي استبدل شريعة الطاغوت بشريعة الله، وهو الذي يطارد الدعاة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وهو الذي يوالي أعداء الله، والدستور هو الذي يضمن حرية الاعتقاد، مهما كان هذا الاعتقاد، وتدخل العلمانية والشيوعية وغيرهما في هذا الإطار، وبعد هذا التعيين تُحدّد صلاحيات المفتي، ولا يجوز له تجاوز هذه الصلاحيات باسم إنكار المنكر وغير ذلك، وإن خرج عن الحدود المرسومة له لا بد أن تصدر بحقه العقوبة والتي تتراوح بين الإنذار والطرد من وظيفته أو نقله لوظيفة مجردة من أي مضمون.

---

(١) تمندل: أي استخدمونا كما يستخدمون المناديل يمسحون بها أوساخهم.

(٢) إعلام الموقعين: (٤/ ١٩٩-٢٠٥).

والذين وقع عليهم الاختيار، إما أن يكونوا من الذين أراقوا ماء وجوههم من أجل الحصول علىٰ هذه الوظيفة، وهؤلاء لن يتردّدوا في الاستجابة لكل ما يأمرهم به سلطانهم أو وزير هذا السلطان، وإما أن يكونوا ممن سعىٰ إليهم السلطان، وقبلوا أخيرًا هذه المناصب بعُجرها وبُجرها، والنتيجة في الحالين واحدة بالنسبة للسلطان، ودليلنا علىٰ ذلك أننا لم نسمع أن واحدًا من هؤلاء المفتين أصدر فتوىٰ ضدّ رغبة السلطان أو ضدّ نظامه، ولم نسمع أن قاضيًا أصرّ علىٰ استدعاء السلطان – أو نائبه أو وزيرًا من وزرائه أو قريبًا من أقربائه– إلىٰ قاعة المحكمة وحكم عليه بالرجم أو الجلد أو قطع اليد أو التعزير مع استحقاقهم لهذه العقوبات كلها أو بعضها لو أراد القاضي وجه الله تعالىٰ، وعلىٰ نقيض ذلك فما من موقف يتخذه السلطان في الصدّ عن سبيل الله إلا ويرافقه تأييد من بعض هؤلاء العلماء، والأمر لله من قبل ومن بعد، والأسوأ من ذلك قول هذا الظالم في بعض الأحيان: نحن في كل أمورنا نستفتي علماءنا وننفّذ ما يفتون به.

إن السلطان يشترط فيمن يختارهم من العلماء شروطًا تختلف عن الشروط التي أشار إليها الإمام أحمد وغيره من الأئمة، فالسلطان لا بد أن يستفتي أجهزة أمنه أولاً، وهذه الأجهزة تقدّم له تقريرًا كاملاً عن الشيخ ومدىٰ استعداده لطاعة السلطان، ثم تُبيّن له نقاط الضعف التي يسهل اختراقه من خلالها....وإذا جاء هذا التقرير موافقًا لرغبة السلطان، فغير مهم أمر العلم [1]، ويكفي الشكل، والقدرة علىٰ الخطابة، وأن يكون معروفًا بين العامة أنه من زمرة العلماء، أما الحديث عن الحلم والسكينة والوقار فتتعارض مع وقوف

(١) اطلعت قبل شهر علىٰ أقوال لشيخ الأزهر ومفتي مصر في الرافضة، وفي أمور أخرىٰ تنم عن جهل يترفع عنه حتىٰ المبتدئ في طلب العلم.

الشيخ الساعات الطوال علىٰ أعتاب السلطان ينتظر الإذن بالدخول، وأما معرفة الناس فيتم معظمها عن طريق مؤسسات الدولة، والقائمون علىٰ هذه المؤسسات يعرفون كيف يحدّدون مناط الفتوىٰ للشيخ.

رحم الله الإمام أبا حنيفة كم كان مصيبًا في قوله للمنصور:

(إن هذا دعاني للقضاء فأعلمته أني لا أصلح، ولا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك، وعلىٰ ولدك، وقوادك، وليس تلك النفس لي، إنك لتدعوني فما ترجع نفسي حتىٰ أفارقك).[1]

الخلاصة: واجه علماؤنا الذين نعتزّ بهم الظالمين بظلمهم وانحرافاتهم، وكانوا لا يخشون في صدعهم بالحق أحدًا إلا الله تعالىٰ، وفيما يلي تلخيص لأهم مواقفهم التي أوضحناها في الصفحات الماضية:

- كانوا ينأون بأنفسهم عن مجالسة الظالمين والتزلّف إليهم وقبول وظائفهم وأعطياتهم، والذين يقبلون الوظائف منهم ما كانوا يتردّدون في التنازل عنها عندما تتعارض مع مواقفهم الثابتة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- كانوا يعتقدون وجوب إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها عملاً بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [سورة آل عمران:١٨٧]، ويؤمنون بحرمة السكوت عن بيان الأحكام، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بليِّ أعناق النصوص أو تحريف الكلم عن مواضعه كما يفعله البعض في هذا العصر؟!

---

(١) مر معنا هذا القول فيما ذكرناه عن الإمام أبي حنيفة.

– علماؤنا كانوا يقولون–والخطر المحدق بهم من كل جانب: (إذا أجاب العالم تقيّةً، والجاهل يجهل، متىٰ يتبيّن الحق؟)، وهذا يعني أن بعضهم كان يفضّل الموت علىٰ التقيّة.

– علماؤنا كانوا يرون أنّ الأمة تُفتن إذا كان الدين لغير الله أو إذا كان بعضه لله وبعضه لغير الله.

– زجّ بعض الظالمين ببعض كبار علمائنا في السجون ليتراجعوا عن فتاوىٰ أفتوا بها علىٰ ملأ من الناس، فما زادهم ذلك إلا ثباتًا وقوةً واستعلاءً، ولهم في ذلك كلمات سجّلها التاريخ بأحرف من نور:

فالإمام أحمد بن حنبل كان وهو يُجلد مشغولاً بشدّ حزام سرواله خوفًا من أن تظهر عورته، والعزّ بن عبد السلام قال لمن جاء يفاوضه ويطلب منه تقبيل يد السلطان والاعتذار منه ثم تعاد له جميع وظائفه:

والله ما أرضاه أن يقبّل يدي فضلاً عن أن أقبّل يده. يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، وشيخ الإسلام ابن تيمية كان يقول: أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

– علماؤنا يعتقدون أن المنكر إذا كان عامًّا فإن النهي عنه يكون عامًّا كذلك: ففتوىٰ الإمام مالك المتعلّقة بطلاق المُكره كانت عامّةً، وموقف الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن كانت عامّةً، وإنكار العزّ بن عبد السلام علىٰ السلطان إسماعيل الذي استعان بالنصارىٰ ضدّ أخيه سلطان مصر كانت عامّةً في خطبة جمعة في المسجد الأموي بدمشق... ولقاء شيخ الإسلام ابن تيمية مع محمود قازان كان علىٰ مرأىٰ ومسمع وفد

علماء دمشق الذين كانوا يرافقون ابن تيمية، وأمام كبار قادة جيش قازان، ثم طارت أخبار هذا اللقاء فسمع بها الخواقين والأمراء الذين أحاطوا بهذا العالم الجليل عند عودته إلىٰ دمشق يتبرّكون به ويسألونه الدعاء لهم.

ورسائل الإمام النووي التي كان يرسلها إلىٰ سلاطين عصره كانت عامّةً لأن عددًا من كبار العلماء كانوا يوقّعون عليها من جهة، ومن جهة أخرىٰ فقد كانت هذه الرسائل تتعلّق بقضايا عموم المواطنين [كالحوطة] وغيرها، وإذا استعرنا اللغة المستعملة اليوم: فلقد كان النووي ناطقًا باسم الجماهير ومدافعًا عن حقوقهم المغتصبة.

- وكان علماؤنا لا ينكرون المنكر بمنكر أشد، ولا يجيزون اقتتال المسلمين فيما بينهم.

- وكان علماؤنا يرون وجوب السمع والطاعة لأمرائهم، ولا يرون الخروج عليهم[1]، وإن ظلموا وضربوا الظهور وأخذوا الأموال لكنهم كانوا يلتزمون حديث رسول الله ﷺ: «**لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**» [2].

كما أن عدم الخروج عليهم مشروط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والطاعة أيضًا لا تعني الإذعان والاستعباد والقهر، قال ﷺ: «**خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلىٰ رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله علىٰ ذلك**». [3]

---

(١) ليس هذا موضع إجماع أهل السنة، كما بينت ذلك فيما مضىٰ.

(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث (١٢٢٥)، [كتاب الإمارة].

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٧٤).

هذه هي فتاوىٰ علمائنا، وهذه هي مواقفهم التي نعتز بها وننسج علىٰ منوالها:

أولئـك آبـائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنـا يـا جرير المجـامع

من هدي علماء السلف اعتزال مجالس السلاطين

للعلماء دور كبير في استقرار الحكم والحاكم، وفي إضفاء الشرعيّة عليه، لأن الناس يحترمونهم، وينتظرون مواقفهم وفتاويهم في الأحداث المهمة، وإن قالوا أصغت الغالبية لقولهم، وتلقّته علىٰ أنه دين وحكم شرعيّ.

ولما كان الحكام لا يهتمون بشيء كما يهتمون بمناصبهم وبطاعة الناس لهم، ولما كان العلماء خيرًا لهم من أسطول إعلاميّ ضخم، لهذا وذاك فقد سعوا منذ القديم إلىٰ كسب ودّ العلماء، واستخدموا معهم سلاح الترغيب تارةً، وسلاح الترهيب تارةً أخرىٰ، ووجدوا بعد خبرة طويلة أن الترغيب أعظم نفعًا وأكثر جدوىٰ من الترهيب، وهذا الذي كان يحذّر منه أئمة السلف رحمهم الله، يقول سفيان الثوري: (ما أخاف من إهانتهم لي إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم).[1]

وكان أبو حامد الغزالي -رحمه الله- يفتي بعدم جواز أخذ أعطيات الظالمين وقبول ولاياتهم، فقال له بعض الذين يخالفونه فيما أفتىٰ به: إنّ بعض الصحابة والتابعين كانوا يأخذون أعطيات وجوائز الظالمين، فكان له هذا القول الجميل في الردّ عليهم:

(إن الظَلَمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم ومتشوّفين إلىٰ استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين علىٰ قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلّدون المنّة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويُفرّقون، ولا يطيعون السلاطين في

(١) تلبيس إبليس، ابن الجوزي، دار الفكر، ص(١٢٢).

أغراضهم، ولا يغشَون مجالسهم، ولا يُكثّرون جمعهم، ولا يحبّون بقاءهم بل يدعون عليهم، ويطلقون اللسان فيهم، وينكرون المنكرات منهم عليهم، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم، ولم يكن بأخذهم بأس، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثّر بهم والاستعانة بهم علىٰ أغراضهم والتجمّل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة علىٰ الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردّد بالخدمة ثانيًّا، وبالثناء والدعاء ثالثًا، وبالمساعدة له علىٰ أغراضه عند الاستعانة رابعًا، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسًا، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة علىٰ أعدائه سادسًا، وبالستر علىٰ ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعًا، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله تعالىٰ مثلاً، فإذًا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يُعلم أنه حلال لإفضائه إلىٰ هذه المعاني فكيف ما يُعلم أنه حرام أو يُشكّ فيه؟ فمن استجرأ علىٰ أموالهم وشبّه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدّادين).[1]

إن غِشيان العلماء لمجالس الأئمة العدول بقصد تذكيرهم بيوم الحشر والمعاد، وتحذيرهم من الركون إلىٰ الدنيا، وتبليغهم بمظالم الرعية التي لم تبلغهم، واجب شرعيّ لقوله ﷺ: «**الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» [2]، بل إنّ نصحهم أصل عظيم من أصول الإسلام، وقد كان النبي ﷺ عندما يبايع أحدًا، يشترط عليه النصح لكل مسلم. قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «**بايعت النبي** ﷺ

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٢/ ١٣٩).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان.

علىٰ النصح لكل مسلم».[١]

أما إذا كان السلطان ظالمًا مفسدًا كاذبًا، لا يقبل نصحًا، ولا يفي بوعد، فقد وردت الآثار باعتزال مجلسه، ورفض أعطياته، فعن كعب بن عجرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم، وأعانهم علىٰ ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم علىٰ ظلمهم ولم يصدُّقهم بكذبهم، فهو مني وأنا منه وهو وارد عليّ الحوض**».[٢]

قال أبو سليمان الخطابي: (ليت شعري من الذي يدخل إليهم اليوم فلا يصدّقهم علىٰ كذبهم، ومن الذي يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم، ومن الذي ينصح ومن الذي ينتصح منهم؟ إنّ أسلم لك يا أخي في هذا الزمان وأحوط لدينك أن تقلَّ من مخالطتهم وغشيان أبوابهم ونسأل الله الغنىٰ عنهم والتوفيق لهم).[٣]

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من بدا جفا، ومن اتّبع الصيد غفل، ومن أتىٰ أبواب السلطان افتُتن، وما ازداد عبد من السلطان قربًا إلا ازداد من الله بُعدًا**».[٤]

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتينّ عليكم أمراء يقرّبون شرار الناس، ويؤخّرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم فلا يكونن عرّيفًا، ولا شُرطيًّا، ولا**

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان.

(٢) رواه الترمذي في الفتن، ورواه أحمد بن عمر، وقال أحمد شاكر: صحيح الإسناد: (٨/ ٦٢)، من المسند [عن الإمامة العظمىٰ، ص٤٠٠].

(٣) العُزلة والخُلطة [عن الإمامة العظمىٰ، ص٤٠١] .

(٤) أخرجه أحمد في المسند: (٢/ ٣٧١)، وذكره الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٣/ ٢٦٧)، رقم(١٢٧٢).

خازنًا».[١]

وقد بيّنا فيما مضىٰ من هذا البحث أن الذين قبلوا المناصب من علماء السلف ما كانوا يبيعون دينهم بدنياهم، ولا كانوا يتردّدون في إنكار المنكر أو بيان الأحكام الشرعية عند الحاجة إليها متمثّلين بقول رسول الله ﷺ: «**خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلىٰ إمام جائر، فأمره ونهاه في ذات الله فقتله علىٰ ذلك**».[٢]

وعن أبي أمامة ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ ورسول الله يرمي بالجمرة الأولىٰ فأعرض عنه، ثم قال له عند الجمرة الوسطىٰ فأعرض عنه، فلما رمىٰ جمرة العقبة ووضع رجله في الغرز قال: أين السائل؟ قال: أنا يا رسول الله. قال: «**أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر**».[٣]

فإن قال قائل: إن هذه المنكرات التي تتحدثون عنها لا نراها في مجالس السلطان ومجالس كبار مساعديه وإننا لا نسمع منهم عند جلوسنا وإياهم إلا كل ما فيه خير للإسلام والمسلمين.

قلنا: يكفينا في ردّ هذه المقولة الإشارة إلىٰ الأمثلة الثلاثة الآتية:

المثال الأول: مما هو معلوم من الدين بالضرورة أن بعض هؤلاء السلاطين نحّوا شريعة الله كلها، وبعضهم نحّىٰ بعض أحكام الشريعة، وأساؤوا تطبيق ما تبقىٰ منها.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: رقم (٣٦٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٧٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند(٥/ ٢٥١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة:(١/ ٦٢).

المثال الثاني: لقد تواترت أخبار ظلم السلاطين، وتحدثت حتىٰ منظمات العفو الدولية عن السجون والمعتقلات التي امتلأت بالأبرياء من خيرة العلماء والدعاة إلىٰ الله، وتقول أدقّ الإحصائيات الصادرة عن المحامين الذين يدافعون عن هؤلاء الضحايا، أنّ عددهم في إحدىٰ البلدان العربية يبلغ ستين ألفًا فضلاً عن عدد الذين يعدمون أو عن عدد الذين يقتلون دون أن يحاكموا أو يسجنوا.

هذا ولا يستطيع عالم من العلماء الادّعاء بأنه لم يسمع بأخبار الأراضي التي اغتصبها إخوان الملوك والرؤساء وأبناؤهم من مالكيها الذين ورثوها عن آبائهم أو التي أفنوا سِنيّ عمرهم حتىٰ جمعوا ثمنها، وإن أي مواطن يستطيع ضرب أمثلة علىٰ هذا الظلم الصارخ مما يحدث في مدينته أو في منطقته.

ولا يستطيع أي عالم من العلماء -أيضًا- الادّعاء بأنه لم يسمع بأخبار أصحاب الشركات أو المؤسسات التجارية الذين يذهبون مضطرين إلىٰ إخوان الملوك والرؤساء يعرضون عليهم مشاركتهم بنسبة تتراوح بين الربع والنصف -دون أن يدفعوا قرشًا واحدًا- مقابل حمايتهم من إخوانهم أو أبناء عمومتهم، وكلما علت مكانة المسؤول كان السعر باهظًا.

وليس من العلماء من يجهل أمر العصابات التي تتنافس علىٰ السلب والنهب، وكل عصابة يتولّىٰ قيادتها وحمايتها قطب من أقطاب النظام تبدأ به وتنتهي بأطراف متعدّدة داخل البلد وخارجه، وقد أطلقت الصحافة في بعض البلدان التي تسمح بهامش يسير من الحرية علىٰ هذه العصابات مصطلح [**القطط السِّمان**] ، وصدر في أمريكا وأوربا عدد من الكتب ومئات المقالات عن هذه الفضائح مثل: صفقات الأسلحة... وغيرها، والعملاء

الذين كان دورهم ثانويًّا أصبحوا بعد عدد من هذه الصفقات يملكون المليارات من الدولارات فما بالكم بما يملكه رئيس العصابة الذي لا يرضىٰ أحيانًا إلا أن يكون ما يدخل جيبه مساويًا لثمن الصفقة التي تم شراؤها.

المثال الثالث: كانت المنكرات والمفاسد التي يرتكبها أئمة الجور شخصيةً ومحدودةً، فكتب التاريخ تحدثنا عن بعض الخلفاء الذين كانوا يقتنون الجواري في قصورهم، وكان الخليفة الذي رقّ دينه وأسرته شهوته يتمتّع بمن شاء منهن، وقد تشاركه الحاشية في مشاهدتهن وهن يرقصن ويغنين، أما اليوم فقد أنشأت الحكومات دور الإذاعة والتلفاز، ونُظّمت برامجها وفق مراسيم صادرة عن الجهات الرسمية المختصة، وأصبح الغناء والرقص والموسيقىٰ عملاً مشروعًا عند هذه الحكومات.

كنا بالأمس وقبل بضعة عقود نستنكر فتح سينما في مدينة من المدن، أما اليوم فقد دخلت هذه السينما بل عدد كبير من دور السينما إلىٰ كل بيت، وأصبحت الأجيال الناشئة تتربّىٰ علىٰ ألفاظ المغنية وحركاتها ومعاني الأغنيات الهابطة، وعلىٰ كل هذا الذي جاؤوا به مما يخدش الحياء، ويحضّ علىٰ الرذيلة... وزادوا الطين بلةً عندما أدخلوا ما أسموه البثّ المباشر، وكأنّ بلاء ما أحدثوه من مفاسد محلّية لا يكفىٰ فعملوا علىٰ إدخال كل فساد في أوربا وغيرها، ثم دفعوا شركاءهم من أصحاب رؤوس الأموال إلىٰ إنشاء قنوات فضائية في البلدان الأوربية موجهة نحو البلدان العربية تخاطبهم بلغتهم، وتتمّم مهمة إفساد الأجيال لأنها خارج حدود الرقابة -هكذا يعتذرون-.

هذا عن دور الإذاعة والتلفاز: أما الصحافة فقد أصبحت حكرًا علىٰ العلمانيين من أهل الكفر والزندقة وعلىٰ المنافقين الذين يبدّلون مواقفهم كما يبدل المرء ثوبه، ونجح

المشرفون علىٰ هذه الصحف المشهورة في تجنيد الكتّاب المعروفين بعدائهم للإسلام: مثل النصارىٰ -وخاصة الموارنة من نصارىٰ لبنان-، وفلول الرافضة الحاقدين، وشياطين اليسار الذين يعملون اليوم في معيّة من كانوا بالأمس ألدّ أعدائهم، ودعاة القومية العلمانية، ومنظّري الأنظمة الرأسمالية اليمينية... كل هؤلاء الكتّاب الذين يختلفون في الوسائل والعقائد، جنود في حزب الشيطان، ويدركون جيّدًا أنهم من خلال عملهم في هذه الصحف يخوضون معركةً ضدّ حزب الرحمن.

والناظر في هذه الصحف الرسمية منها أو شبه الرسمية يقرأ فيها الإعجاب بالفلسفة الوجودية والسخرية من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ويسلكون في ذلك أساليب خبيثةً ظاهرها ما يسمونه البحث العلمي، وحقيقتها التشكيك والدس والافتراء، كما يقرأ فيها حملات إرهابيةً حاقدةً ضدّ الإسلاميين، وضد الإسلام السياسي -كما يدّعون-، بحجة عداوة دعاة الإسلام السياسي للأنظمة التي تمتلك هذه الصحف وتشرف عليها، ويقرأ فيها اهتمامًا منقطع النظير بأخبار الرياضة والرياضيين مع إبراز صورهم، وأنباء بطولاتهم المزعومة، ويقرأ فيها أخبار الراقصات والمغنيات يرافقها دعوة صريحة إلىٰ ترقّب ومشاهدة برامجهن في دور الإذاعة والسينما والتلفاز، ويقرأ أخبار المسؤولين مع نسائهم في حلِّهم وترحالهم، ويرىٰ من خلال التلفاز أشكالاً تُغضب وجه الله سبحانه وتعالىٰ.

أما الإسلاميون فقد حيل بينهم وبين إصدار الصحف الخاصة بهم، كما حيل بينهم وبين الدفاع عن دينهم في صحافة القوم العلمانية إلا في حدود ضيّقة جدًّا ومحدودة، فحتىٰ المساواة بين الحقوق الممنوحة للعلمانيين والإسلاميين معدومة عند هؤلاء

السلاطين، ولا أعدو الحقيقة عندما أقول: لا يمتلك الإسلاميون في طول البلاد وعرضها صحيفةً إسلاميةً يوميةً واحدةً، ولو صدرت مثل هذه الصحيفة في دولة أوروبية [1] لفُرض عليها حصار يحول بينها وبين الوصول إلىٰ معظم البلاد العربية إن لم يكن إليها كلها.

قد يقول قائل: بل هناك مجلات إسلامية تصدر في بعض البلدان العربية! فأقول: هذا صحيح، ولكن السلاطين وأجهزة أمنهم يقفون وراء هذه المجلات التي تتخذ من الإسلام والمسلمين شعارًا واسمًا تتسمّىٰ به، وهي في حقيقتها ليست أكثر من مسجد من مساجد الضِّرار، ولهذا فهي مُسخّرة للتشنيع علىٰ الدعاة والجماعات الإسلامية، كما أنها مسخّرة للتشكيك ببعض أصول الإسلام التي تُرضي السلطان.

إذًا: كيف يقول بعض العلماء: إننا لا نرىٰ هذه المفاسد والمعاصي في مجالس السلاطين التي نتردّد عليها؟! نسألهم بالله أن يرهفوا سمعهم، ويدقّقوا نظرهم، وألا ينظروا إلىٰ ما حولهم بعين الرضىٰ والمنفعة، بل بعين الورع والتقوىٰ والزهد، ولو استجابوا لسؤالنا هذا لأيقنوا أن مفاسد السلاطين قد ملأت البر والبحر والجو -أي ما يحدث من مفاسد علىٰ طائراتهم-، ولعلموا أن اعتزال مجالس السلاطين من أضعف الإيمان.

وبعد هذا الاستطراد عن فساد السلاطين وظلمهم وتنحيتهم لشريعة الله، نعود إلىٰ قول سفيان الثوري: (ما أخاف من إهانتهم لي إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم).

رحم الله هذا الإمام الجليل، لقد كان ينظر بنور الله جلّ وعلا إلىٰ واقع عصرنا وما

---

(١) إن التعاون من أجل إصدار هذه الصحيفة واجب علىٰ الإسلاميين، كما أن خوض هذا الميدان بعمومه واجب.

سبقه من عصور ويصفها وصفًا دقيقًا، ولو فطن العلماء اليوم إلىٰ أبعاد قول سفيان لأعادوا النظر في كثير من مواقفهم التي كانت في بدايتها ليست أكثر من اجتهاد خاطئ فيه كثير من الغفلة وعدم التبصّر بعواقب الأمور، ثم انتهت إلىٰ المراوغة والشقاق والنفاق عند كثير منهم والعياذ بالله.

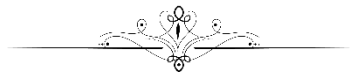

التذكير بمنهج الاستدلال عند أهل السُّنة

يطير أعضاء حزب الولاة فرحًا بكل فتوىٰ شاذة إذا كانت مما يرضاه ويريده السلطان، ويبذلون جهدًا واسعًا من أجل تدريسها وترسيخ معانيها، وإشاعتها بين عدد كبير من الناس... ومما فعلوه في هذا المجال: جمع هذه الأقوال والفتاوىٰ وإصداراها في كتيبات علىٰ شكل متون، وتولوا هم (!!) شرح هذه المتون بأساليبهم المتعسّفة المعوجّة وبألفاظهم البذيئة الشائنة.

وبحجة شرح هذه المتون أطلقوا ألسنتهم في شتم وتجريح من نحسبهم من خيرة العلماء والدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وما كان لهؤلاء من ذنب إلا قيامهم بواجب بيان الحكم الشرعيّ عندما دعت الحاجة إلىٰ بيانه.

وبحجة شرحهم لهذه المتون قرّروا أن العلماء الذين قالوا قولاً يرضاه السلطان الظالم المغيّر لشرع الله هم المرجعية المعتبرة لأهل السُّنة والجماعة في هذا العصر، ولا يجوز لأحد أن يتقدّم عليهم بقول أو فعل... ومن تجرّأ علىٰ ذلك فهو عندهم: مبتدع، متطرّف، ضال، مضل، ويستعدون عليه ولاة الأمر دون النظر إلىٰ ما في هذه الأدلة من صواب وخطأ، بل ولو أن أحدًا من العلماء الكبار قال قولاً واحدًا يغضب وليّ أمرهم لأخرجوه من عضوية هذه المرجعية، وأطلقوا ألسنتهم بنهش عرضه، ويتناسون أنهم قبل أيام أو ساعات قلائل كانوا يعدّونه من أولياء الله، ويتهمون كل من ينتقده.

لا أريد الإطالة في وصف تناقضات حزب الولاة، وانتقالهم بسرعة فائقة من النقيض إلىٰ ضدّه لأنني قد فصّلت فيهم القول في غير هذا الموضع، وإنما أريد

الوقوف قليلاً عند مسألة [**المرجعية**] لأنني رأيت أن هذه المسألة قد التبست علىٰ بعض طلاب العلم الطيبين، فعندما تتحدث مع أحدهم، وتسرد له ما عندك من أدلة شرعية يستمع إليك حتىٰ إذا فرغت من مسألة قد أشبعتها بحثًا ودراسةً قال لك:

ولكن الشيخ ... -وهو من هو- قال بخلاف ذلك.

ونقول له: يا أخي أنت طالب علم، وأنا قد عرضت عليك أدلةً شرعيةً من كتاب الله وسُنة رسوله وأقوال العلماء أو إجماعهم، فكيف تعرض عن ذلك كله وتتمسّك بقول للشيخ؟!

فيكون ردّه: لا أعتقد أن الشيخ قد غابت عنه هذه الأدلة عندما أفتىٰ بغير ذلك، ثم يغلق باب الحوار معك عند تمسكه بقول الشيخ.

وآخرون من طلاب العلم يخشون من إرهاب غوغاء حزب الولاة لاسيما وهم يرون بأعينهم صِلاتهم الوثيقة بأجهزة الأمن، ويرون أيضًا عاقبة من خالفهم وقال بغير قولهم، بسبب هذا وذاك يلجأ طلاب العلم هؤلاء إلىٰ التقيّة فيقولون:

القول عندنا ما يقوله شيوخنا، ثم يذكرون أسماء هؤلاء الشيوخ التي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة... وهذه هي المرجعية الإسلامية عندهم في العالم كله!

لهؤلاء الطيبين من طلاب العلم، أقول:

تعالوا نستعرض وإياكم ما تعلمناه من علمائنا وأئمتنا، والذي لا خلاف فيه بين أهل السُّنة والجماعة المتمسّكين بمنهج السلف الصالح:

١- مما اتفق عليه المسلمون أن تُردّ الأمور التي يختلفون فيها إلىٰ كتاب الله وسُنة نبيه

ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء:٥٩].

قال ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية:

(ولو لم يكن في كتاب الله وسُنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه، ولم يكن كافيًا، لم يأمر بالردّ إليه، إذ من الممتنع أن يأمر تعالىٰ بالردّ عند النزاع، إلىٰ من لا يوجد عنده فصل النزاع)[١].

٢- يقع الخلاف بين المسلمين في طريقة فهمهم للكتاب والسُّنة؛ لذا فقد نصّت الآثار الصحيحة علىٰ وجوب اتباع السلف، وقد ثبت في السُنن عن العرباض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إنّ هذه موعظة مودّع؟ فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال:

«أوصيكم بتقوىٰ الله والسمع والطاعة، وإِنْ عبدٌ حبشيّ فإنّه من يعشْ منكم يرىٰ اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضّوا عليها بالنواجذ».[٢]

وقال الإمام أحمد رحمه الله: (أصول السُّنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم).[٣]

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٩).

(٢) جامع الترمذي رقم (٢٦٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي رقم(٣١٧).

٣- قال ابن مسعود ﷺ: (من كان منكم مُستنًّا فليستنّ بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تُؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتّبعوهم في آثارهم، وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم).[١]

٤- كان ابن عباس ﷺ يرىٰ أن التمتّع بالعمرة إلىٰ الحج واجب، وكان يستدل علىٰ ذلك بحديث نبوي، وكان بعض الصحابة يردّون عليه بأقوال لأبي بكر وعمر، فقال لهم: (أقول لكم قال الله وقال الرسول، وتقولون: قال أبو بكر وقال عمر، يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء).[٢]

٥- وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

(أجمع العلماء علىٰ أن من استبانت له سُنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد).[٣]

٦- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (من نصّب شخصًا كائنًا من كان فوالىٰ وعادىٰ علىٰ موافقته في القول والفعل، فهو من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا).[٤]

---

(١) جامع البيان لابن عبد البر: (١/ ٩٧)، وشرح العقيدة الطحاوية [٤٣٢].

(٢) قول ابن عباس في وجوب التمتع بالعمرة إلىٰ الحج أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من المحدّثين وكذلك قول الشافعي، انظر الحكم بغير ما أنزل الله (١/ ٥٢).

(٣) المصدر السابق.

((٤ الفتاوىٰ الكبرىٰ: (٢/ ٢٣٩).

فليتدبّر إخواننا طلاب العلم هذه الأقوال، وليتقوا الله في دينهم، وليحذروا أن يكونوا من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا، ولا فرق عندي بين موافقة الشيخ في كل ما يقوله ويفعله، وبين موافقة طلاب الشيخ لأنهم في مجموعهم يتّبعون الشيخ، وقد تعجّب الإمام أحمد رحمه الله من قوم عرفوا الإسناد وصحته ثم يذهبون إلىٰ رأي سفيان، مع أن سفيان لا يقارن بأي عالم من العلماء المعاصرين الذين تتمسّكون بآرائهم ثم لا تهتمون بعد ذلك بالأدلة التي تُعرض أمامكم.

قال الإمام أحمد رحمه الله: (عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلىٰ رأي سفيان، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة النور:٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذ ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك).[١]

٧- قال الطحاوي رحمه الله: (ونتبع السُّنة والجماعة ونتجنّب الشذوذ والخلاف والفرقة)، وقال شارح الطحاوية: (والجماعة: جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين. فاتّباعهم هدىٰ، وخلافهم ضلال).[٢]

وقال سليمان التيمي: (لو أخذت برخصة كلّ عالم وزلّة كل عالم اجتمع فيك الشرّ كله).

يا إخواننا من طلاب العلم الذين ما زلنا نحسن الظن بهم:

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، مكتبة دار البيان، ص(٤٥٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، ص(٤٣٠).

لا أعتقد أن في هذا القول المختصر الذي عرضناه جديدًا عليكم، ولا أعتقد أن هناك واحدًا بينكم لم يسرد هذه الشواهد والأدلة في معرض ردّه علىٰ المقلّدين المتعصّبين الذين لا يرون حلالاً ولا حرامًا إلا من خلال ما يقرّره شيوخهم، فما بالكم غفر الله لنا ولكم وقعتم فيما وقعوا به؟! ألأنكم وثقتم من منهج شيوخكم، وهذا أيضًا ما تأخذونه علىٰ غيركم، فللشيخ -مهما كان فاضلاً- زلات، وأهواء، وسقطات ولا يجوز اتّباعه فيها.

يا قوم، مما تحاجّون به المقلّدين المتعصّبين أنه لا يجوز تقديم قول أبي بكر وعمر علىٰ قول الله ورسوله، وتحتجّون أيضًا بقول ابن عباس الذي رواه عنه الإمام أحمد: (ليس منا أحد إلا يُؤخذ من قوله ويُدَع، غير النبي ﷺ)، أي: ليس من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من الأئمة الأعلام إلا يؤخذ من قوله ويدع، وهذا الذي نَدَع قوله يبقىٰ عالمًا فاضلاً مشهودًا له بالصلاح والصدق، ولكن لا نتّبعه في زلته أو في اجتهاد قد أخطأ فيه... فما الذي أصابكم حتىٰ وضعتم شيوخكم في مرتبة دونها مرتبة أبي بكر وعمر وغيرهما من رجال الرعيل الأول؟! [1].

يا قوم: أعيدوا النظر بموافقتكم، ولا تزِنوا الأقوال بقيمة قائليها في نفوسكم، وإنما بمقدار قربها من الصواب، وراجعوا ما نعرضه عليكم من أقوال في هذه المسألة التي اختلفنا فيها مع شيوخكم، وستعلمون حينئذ أن عندنا علىٰ ذلك أدلةً من كتاب الله وسُنة نبيّه، ومن أقوال الصحابة، بل ومن إجماعهم في بعض الحالات، وعندنا شواهد من أقوال أئمة الإسلام، وقد عرضنا نماذج منها فيما مضىٰ من هذا البحث، كما أن عندنا شواهد

(١) كان ذلك عن تسرّع منهم يخالف ما هم عليه من تمسك بمنهج أهل الحق.

من أقوال ومواقف شيوخ شيوخكم، ومن أقوال شيوخكم قبل أن يغيّروا مواقفهم، واعلموا بعد ذلك كله أن هذا الذي نتبناه وندعو إليه ليس حالةً شاذةً لم نُسبق إليها.

وأما دعاة حزب الولاة: فلن يستطيعوا حجب الشمس الساطعة بغربالهم. ولن يفلحوا في فرض أباطيلهم علىٰ الناس؛ لأن للحق جنودًا لا يخشون تهديد سادتهم ولا وعيدهم، وقد عقدوا العزم علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما غلت التضحيات، وقد ينجح حزب الولاة بعض الوقت في إثارة الفتنة، ولكن الناس سيعرفون نفاقهم وينفضّون عنهم ... ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة سبأ:٤٨-٤٩].

يتحدّث الانتهازيون المرتزقة عن مرجعية أهل السُّنة، ونجيبكم: نعم، نحن نريد هذه المرجعية التي تضم كبار العلماء العاملين المستقلين الذين يمتثلون عقيدة أهل السُّنة والجماعة في كلّ موقف من المواقف، ولا يقبلون من ظالم أن يفرض أوامره وتعليماته عليهم. إننا نريد هذه المرجعية لتنقذنا من نفاق المنافقين، ومن هذه البلبلة التي يثيرونها، مرجعيةً تذكّرنا بمواقف: أبي حنيفة، وابن حنبل، والنووي، وابن تيمية، وغيرهم من هذه الكوكبة الطاهرة الخيّرة.

نعم، إننا نريد مرجعيةً تشمل العلماء الذين رزقهم الله سبحانه وتعالىٰ القدرة علىٰ فهم مشكلات الأمة الإسلامية، كما رزقهم الاستقامة والبُعد عن مواطن الشبهات، ولهم جهود مشكورة في بيان الدواء الشافي لعلل أمتنا، ومهما فعل الظالمون فلن يستطيعوا حجب الشمس.

نعم، نريد العلماء الذين عناهم الشاعر بقوله:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرىٰ الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزّة النفس أُكرما
وما كلُّ برق لاح لي يستفزّني ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعّما
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبتْ ... أقلّب كفي إثره متندّما
ولم أقض حق العلم إن كان كلّما ... بدا طمع صيّرته لي سُلّما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرىٰ ... ولكن نفس الحرّ تحتمل الظما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخدما
أأشقىٰ به غرسا وأجنيه ذلةً ... إذًا فاتّباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعُظِّما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتىٰ تجهّما [1]

يا دعاة الحق: لا تيأسوا من نصر الله تعالىٰ، واعلموا بأن الطغاة إذا أغلقوا بابًا واحدًا في وجوهنا فتح الله لنا أبوابًا، وكلما ازداد عدوّنا شراسةً وحقدًا واستبدادًا يجب أن تتضاعف وسائلنا وتتعدّد، وسيبقىٰ كيد الشيطان وحزبه ضعيفًا وهزيلاً أمام كيد الله جلّ وعلا ثم أمام حسن تخطيط وتنظيم جند الله.

(١) للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، طبقات الشافعية الكبرىٰ: (٣/ ٤٦٠).

الفصل الثالث:
علماء السلطان

- أحمد حسن الباقوري.
- عبد الستار السيد.
- عبد العزيز كامل.
- شيوخ آخرون.
- ماذا كان يجري داخل السجون.
- فاعتبروا يا

علماء السلطان

من يقرأ بتدبّر مذكرات الشيوخ الذين ساروا في ركب السلاطين الظلمة، ومن يستمع إلىٰ مقابلاتهم بعد هلاك أسيادهم، وما يقوله أقرباؤهم وأصدقاؤهم عنهم تعتريه الدهشة عندما يعلم أن الشيخ كان يكره سيّده، والسيد يبادل الشيخ مشاعره بأشدّ منها ... ولم تكن المسألة بين الطرفين أكثر من بيع وشراء:

فالسيد اشترىٰ من الشيخ حنجرته المجلجلة، وقدرته الفائقة علىٰ الخطابة، ومكانته في المجتمع، ودفاعه عن كل ما يفعله ويقوله السيد القائد، بل دفاعه عن ذيل بغلة السلطان -وسيأتي الحديث عنها-.

والشيخ قبض الثمن إذ أصبح وزيرًا أو ما هو أقل من الوزارة أو نحو ذلك كمبلغ من المال أو غيره.

فالشيخ إذًا: أعطىٰ لسيده كل ما يقدر عليه من مدح وثناء وتعظيم وتبجيل، ولكنه في قرارة نفسه يعرف أنّ السيد ظالم مستبد، وإذا خلا بنفسه تراه يفكر برفاقه القدامىٰ الذين عاش معهم أحلىٰ وأعذب سِنيّ عمره... ولكنه يناقض نفسه، ويمارس لونًا من ألوان الازدواجية، فيحاول الاندماج مع السيد وزملائه الوزراء، ولكنه يجد دون ذلك أبوابًا مغلقةً، فزملاؤه يعطونه من طرف اللسان حلاوةً، ويتلطّفون في حديثهم معه، ثم تراهم ينفرون منه ويبعدونه عن مجالسهم الصاخبة التي تسودها المرأة والخمرة والرقص والغناء.

ويبعدونه عن مجالسهم واجتماعاتهم الفكرية العلمانية فيسمع من الإذاعة قرارات تصطدم مع مشاعر علماء الأمة وشيوخ الأزهر.

أما السيد فلن ينسىٰ أن هذا الشيخ جاء من جماعة تناصبه البغضاء والشحناء، كما أنه لن ينسىٰ أنه سيبيع حنجرته لسيد آخر قد يكون عدوًّا له، وعند السيد دليل من الماضي علىٰ صحة ما توسوس به نفسه.

صنف آخر من هؤلاء الشيوخ الدعاة لم يتركوا وراءهم مذكرات، وأقرباؤهم صناديق مقفلة، ولكن الذي رآه الناس أن هؤلاء الدعاة لم يتحمّلوا حياة السجون والمعتقلات، فقبلوا ما عرضه السلطان عليهم، وأَلِفوا الحياة الجديدة، وتنكّروا لإخوانهم لأنهم يعرفون أنه لا بد من دفع الثمن لسيدهم الجديد، وبعد هلاك هذا السيد انتقلوا لخدمة سيد آخر، ثم تولوا مسؤوليات هادئةً، لا أعتقد أن فيها إيذاء لأهل الخير.

وفيما يلي اخترنا نماذج من العلماء والدعاة الذين ساروا في ركب السلاطين الظلمة، وكانوا عونًا لهم ضدّ الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ولعل في ذلك عبرة للأحياء.

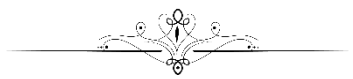

أحمد حسن الباقوري:

[١٣٢٥-١٤٠٥هـ/ ١٩٠٧-١٩٨٥م]

وُلد في باقور بصعيد مصر، وتخرّج في الأزهر، وعمل في السياسة بالإضافة إلىٰ تعيينه مدرسًا في الأزهر، فكان من قادة الحركة الإصلاحية بالأزهر، واتصل بجماعة الإخوان المسلمين فأصبح أحد قادتها فوكيلاً للمرشد العام الأول حسن البنا، وعُرف بخطابته المؤثرة.

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢م اختاره جمال عبد الناصر وزيرًا للأوقاف معارضًا بذلك رأي جماعته، ففصلوه بعد أن كان يرافق المرشد الثاني حسن الهضيبي في جولاته داخل مصر ويخطب له.

وفي عام ١٩٦٤م عيّنه عبد الناصر رئيسًا لجامعة الأزهر، وعضوًا في مجمع البحوث الإسلامي، وفي مجمع اللغة العربية، ومن كتبه: [أثر القرآن الكريم في اللغة العربية] و[قطوف من أدب النبوة] و[صفوة السيرة المحمدية] و[مع الصائمين] و[مع القرآن].

وبعد موت عبد الناصر سار في ركب خليفته أنور السادات، فخطب له، وبالغ في الثناء عليه كما سيأتي.(١)

قال الشيخ الباقوري:

(وقد كانت بطانة عبد الناصر من أسوأ البطانات في الأرض إلا قليلاً ممن عصم الله، فكانوا يحرصون علىٰ استغلال قربهم منه: إما رجاءً لخيره، وإما اتقاءً لشرّه، وهم مع ذلك

(١) إتمام الأعلام، ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي. د. نزار أباظه ومحمد رياض المالح.

قليل جدًّا. ولقد كان من أشدّ ما ابتلاه الله به، أخذه بالنظام الهتلري في حكم الشعب، واستعانته برجال المخابرات النازية الذين حاولوا أن يصنعوا بمصر ما كانوا يصنعونه بألمانية في عهد هتلر).

بطانة عبد الناصر من أسوأ البطانات ليس في مصر ولكن في الأرض! إن اعتراف الشيخ بهذه الحقيقة جاء متأخّرًا، وكل من يحترم نفسه لا يعمل في مثل هذه الأجواء، ولكنه عاد وعمل بما هو أقل من الوزارة.

وقال الشيخ أيضًا:

(وليس يرتاب الذين يؤرّخون لهذه الثورة في أنها كانت كسائر الثورات تستند إلىٰ أمرين: أحدهما التوسع في نشر الجاسوسية، وثانيهما اصطناع أنصار يستغلون صِلاتهم بالثوار. فأما التوسّع في نشر الجاسوسية، فقد اقترن في أذهان الناس بأنه كلما استطاع الجاسوس أن ينصب شَركًا لأحد خصوم الثورة، كان أولىٰ بالرعاية والثقة به. وكان بعض هؤلاء يصطنعون في كل بيت، وكل مكتب أصدقاء لهم يأتونهم بأخبار-صادقة أو كاذبة- لقاء أجر معلوم، وقد نشأ عن ذلك أن أصبح الوالد يتجسّس علىٰ ابنه، والجميع ينتظرون من الدولة حسن المثوبة وجزل العطاء في منصب يسند إليهم أو مغنم يدر عليهم أخلاف الرزق الوسيع).[1]

إن أجهزة التجسّس تختلف من حيث القوة والضعف من بلد لآخر، ولكن لابد في النهاية من فرض المراقبة علىٰ كبار المسؤولين من العلماء، وقد تناط هذه المهمة

(١) بقايا ذكريات، الشيخ أحمد حسن الباقوري، ص: (٢٠٥/ ٢٣٧) وقد طرد الشيخ من الوزارة، بسبب وشاية كاذبة، ولم تشفع له الخدمات النادرة التي قدمها لعبد الناصر ونظام حكمه.

بالشرطي الذي يحرس الشيخ أو بسائق سيارته أو بمدير مكتبه، وهذا كله غير أجهزة التصنّت ذات التقنية العالية، وإذا كانت ظروف الشيخ الباقوري قد مكّنته من نشر مذكراته بعد هلاك عبد الناصر، فغيره غير قادر علىٰ ذلك، أو لا يريد أن يُقدم علىٰ عمل يفضح فيه نفسه.

وأكاد أقرر أنه ما من شيخ أُسندت إليه مسؤولية كبيرة قد سلم في النهاية من بطش السلطان خاصة إذا تجاوز الخطوط الحمراء المرسومة له، وعندما يحدث مثل هذا التجاوز تصدر الأوامر الفورية بعزله، وقد يسمع خبر هذا العزل في الإذاعة كغيره من الناس، وقد تُفرض عليه الإقامة الجبرية في منزله، ثم تبدأ السلطة بطريقة خبيثة بتسريب وثائق تفضح سيرة الشيخ، وتكشف سوء استخدامه للسلطة:

- فهذه صورة [**شيك**] ممهور بتوقيع الرجل الأول في الدولة تشير إلىٰ استلام الشيخ مبلغـًا كبيراً من المال مقابل فتوىٰ شاذة أفتىٰ بها أو مقابل خدمة مشبوهة قدمها للنظام.

- وتلك وثيقة أخرىٰ تتحدث عن اختلاس الشيخ لعقار كبير من أملاك الدولة العامة التي كانت تتبع وزارته قبل عزله.

وفي غير هذا وذاك قد يتحدث الناس عن مؤامرة مزعومة، وقد يعترف المتآمرون تحت وطأة التعذيب بأنهم كانوا ينسّقون أمورهم مع الشيخ، وقد يكون معظم هذه الوثائق مختلقًا ولا أصل له، والمقصود من ذلك تشويه سمعة الشيخ.

يتحدّث الشيخ أحمد حسن الباقوري عن عدد من الشائعات التي روّجها النظام ضدّه بعد طرده من الوزارة، ومن ذلك قوله:

(ولست أنسىٰ ابني عبد العزيز عبد الوارث الدسوقي، الذي جاء في صباح اليوم التالي

لاستقالتي مغيظًا محنقًا، ثم أخبرني أن من الإشاعات التي أطلقوها ضدي إشاعةً غبيةً بقدر ما هي مضحكة، ووجه الإضحاك والغباء في هذه الشائعة أنني كنت في رحلاتي العالمية أحمل معي في حقيبة يدي عملات مختلف البلاد التي كنت أزورها، من فرنكات سنغالية،وأخرىٰ فرنسية، وجنيهات إسترلينية، وكانت هذه الحقيبة تأخذ مكانها في مكتبي بالوزارة مع مذكراتي ومقالاتي التي كنت أريد أن أحتفظ بها، وقد استولىٰ القوم علىٰ هذا كله، ظانين أنه يحمل أسرارًا تثبت أنني أدبّر مؤامرةً ضدّ عبد الناصر.

وكان كل ما في تلك الحقيبة لا يجاوز ثلاثمائة جنيه في عملات مختلفة.

فقالت الإشاعات: إن عبد الناصر صادر منذ أيام بنك موصيري، ولم يعلم أن بنك موصيري موجود في حقيبة الشيخ الباقوري).[1]

فهل عاد الشيخ إلىٰ رشده بعد هذه الإهانات التي تلقّاها من عبد الناصر ونظامه.. وهل اقتنع بأنه كان يحلّق في غير سربه؟!

لا، لم يعد إلىٰ رشده، وسارع إلىٰ قبول أول عرض يعرضه عبد الناصر عليه، مع أنه كان أقل من منصب وزير، وبعد هلاك عبد الناصر انضم إلىٰ الجوقة التي تصفّق لأنور السادات، ومن الأمثلة علىٰ ذلك الكلمة التي ألقاها في مؤتمر نظمته الحكومة لتأييد السادات والتنديد بمعارضيه، وكان مما قاله:

(إن السلطان هو ظل الله في الأرض .. وظل الله في الأرض له حرمة ومهابة فلا يجوز المساس بالسلطان أو الإساءة إليه بكلمة.. حتىٰ أن الفقهاء قالوا إذا كان السلطان يركب بغلةً، وذيل بغلة السلطان مقطوع... فلا يجوز التهكم علىٰ ذيل بغلة السلطان... فكيف

(١) بقايا ذكريات، الباقوري، ص (٢٤٨).

بالتهكم علىٰ السلطان).[1]

هذا والباقوري يعرف السادات جيّدًا، ويعرف الكثير عن حياته الخاصة قبل انقلاب يوليو ١٩٥٢م، ويعرف ما أُثير ضده من قضايا مؤسفة داخل مجلس قيادة الثورة، مما دعا رئيس المجلس وأول رئيس جمهورية في مصر الجنرال محمد نجيب إلىٰ اتخاذ قرار بفصل السادات من المجلس، وكاد الأمر يتم علىٰ هذا الشكل لولا تدخل جمال عبد الناصر الذي انتهىٰ إلىٰ تعطيل القرار ليكسب صوتًا إلىٰ جانبه في معركته ضدّ محمد نجيب، لأن السادات كان يصوّت مع عبد الناصر ظالمًا كان أو مظلومًا، ومن ذا الذي كان يجرؤ علىٰ ظلم عبد الناصر؟!

ومما يجدر ذكره أن هذا الدفاع السمج عن السلطان وذيل بغلته جاء بعد زيارة السادات لقادة الكيان الصهيوني الذين استقبلوه في قدسنا وما يتضمنه هذا الاستقبال من تحدٍ لمشاعر المسلمين في كل مكان علىٰ ظهر هذه البسيطة، فماذا يضير الشيخ الباقوري في هذه المناسبة لو قال كلمة حق يكفّر فيها عن أخطائه السابقة، ويختم بها حياته لا سيما وأنه قد بلغ من الكبر عتيًّا، والسادات لن يسجنه أو ينفيه، ولكنه لم يفعل وأبىٰ إلا أن يدافع عن ذيل بغلة السلطان!!

(١) مجلة المجتمع، العدد: ٤٧٦، تاريخ: ٩/ ٥/ ١٤٠٠هـ عن الصحف المصرية الصادرة في هذا التاريخ.

عبد الستار السيّد:

هو من مدينة طرطوس الساحلية في سوريا، وخطيب أكبر مسجد من مساجدها، وقد بحثت عن ترجمة له فلم أجد، لذا سأكتب ما أعرفه عنه.

بدأت شهرته تتجاوز مدينته عندما وصل إلىٰ بلاط الرئيس جمال عبد الناصر بعد الوحدة بقليل، أما كيف وصل؟!

فأجهزة الأمن التي كان يرأسها العقيد عبد الحميد السراج هي التي زكّت هذا الشيخ، بل هي التي تزكي كل مَن سيعتمد عليه عبد الناصر: من الشيوخ، والسياسيين، والعسكريين، وغير ذلك.

كان الشيخ يتنقل من مدينة لأخرىٰ مشيدًا بالوحدة وبالقائد الملهم جمال عبد الناصر. واستمع إليه الأخير، فوجد أن حنجرته شبيهة بحنجرة الباقوري فابتاعها منه مقابل أن يكون عضوًا في الاتحاد القومي الذي كان بمثابة برلمان، ولكنه شكلي لا شأن له.

وإن نسيتُ فلن أنسىٰ صوت الشيخ الذي كان يخطب بين يدي الرئيس في مدينة اللاذقية ويقول له:

(يا سيادة الرئيس والله لو خضت بنا عباب هذا البحر لخضناه وراءك ما تبقىٰ منا رجل واحد ...) ثم انطلقت حناجر الجمهور بالهتاف وأيديهم بالتصفيق.

ثم جاء الانفصال ٢٨/ ٩/ ١٩٦١م فراح الشيخ يبحث عن سيد آخر، دون أن يخوض البحر وراء عبد الناصر. وجاءته الفرصة المناسبة في ٨/ ٣/ ١٩٦٣م عندما دبّر الناصريون والبعثيون انقلابًا عسكريًّا ثم جرت انقلابات بعد هذا الانقلاب إلىٰ أن استولىٰ أبناء

الطائفة النصيرية علىٰ شؤون الحكم وأطاحوا بالناصريين ثم بحزب البعث، فسار الشيخ في ركاب هذه الطائفة، وراح يعظّم ويمجّد قائد الحركة التصحيحية الجنرال حافظ الأسد، وباعه حنجرته وقلمه ومواهبه، ونسوق فيما يلي مثالاً علىٰ إسفاف الشيخ ومداهنته وقوله ما لا يعتقد:

نشرت صحيفة الثورة السورية في عددها [٤٥٨٩] مقالاً لوزير الأوقاف الشيخ عبد الستار السيّد بمناسبة إعادة انتخاب حافظ الأسد رئيسًا للجمهورية تحت عنوان:

(من أجل هذا ... نقول نعم للقائد الأسد) ونكتفي باختيار فقرات منه:

(عندما نقول نعم لحافظ الأسد، فإننا نقولها لقائد عظيم من قادة أمتنا في العصر الحديث، نقولها لرجل دولة حكيم، وزعيم مخلص أمين، نقولها لمبادئ سامية نادىٰ بها الرئيس، لسياسة متوازنة داخلية وخارجية، سياسة من الوطن وللوطن، من جماهير الشعب وإليها تضع نصب أعينها مصالح الأمة، وخير الناس ومستقبلهم.

إن الاستفتاء هو أكثر من ممارسة مواد دستورية أو تأدية حق وواجب انتخابي، إنه التزام بسياسة متكاملة باستراتيجية واضحة، بنضال أمة لتحقيق كرامتها وتحرير أرضها، والتمسك بقيمتها وأخلاقها، وتصويت علىٰ رغبة في مزيد من البناء والتقدم والتطور والنمو).

ثم يتحدث عبد الستار السيّد عن الحركة التصحيحية التي قام بها الأسد وكيف جاءت بالمجالس الشعبية، وأقامت المشاريع الصناعية والزراعية، وطوّرت التعليم ووسّعت الثقافة، وجدّدت الصلات مع الأشقاء العرب، ونادت بالتضامن العربي كخطوة نحو الوحدة العربية.

وكان للحركة التصحيحية أثر ملموس في الإطار العالمي لأنها قامت علىٰ الحكمة في فهم السياسة العالمية، وأحيت العلاقات التاريخية الوطيدة.

وقال الشيخ عبد الستار السيد:

(إن هذه السياسة التي قادها الرئيس الأسد هي التي أدّت إلىٰ التفاف جماهير الشعب حول قيادته. إن هذه السياسة هي التي هيّأت المناخ الملائم لحرب تشرين التحريرية لإعادة كرامة الأمة وتحقيق ذاتها، وتغيير موازين القوىٰ في المنطقة، ووضع أمتنا وشعبنا علىٰ الطريق الصحيح.

هذه هي السياسة التي تجعل شعبنا يقول بحماس نعم للرئيس الأسد، الرئيس الإنسان الذي يسع قلبه الكبير تطلعات الجماهير في هذا القُطر، ويعيش آمال الناس وآلامهم، أفراح المواطنين وأتراحهم، يعمل لهم، يتألم لألمهم، يسعد لسعادتهم.

إن هذا هو سبب الحب المتبادل بين الشعب وقائده وهو أساس تفجّر الشحنات الخلاّقة عند كليهما، وبهذه الروح المتجدّدة سيجدّد الشعب في الثامن من شباط بيعة الأسد زعيمًا وقائدًا ورئيسًا.

إنّ استمرار قيادة الأسد هي صمام أمن وضمان لكل ما تحقّق خلال السنوات السبع الماضية، لقد عقد الشعب الأمل والرجاء علىٰ القائد الشجاع عندما سطع نوره في وهج الحركة التصحيحية المظفرة، ثمّ نما هذا الأمل وترعرع حتىٰ استوىٰ علىٰ سوقه.

ومن أجل هذا كله نقول:

[نعم] للقائد الذي يوحد كلمة الأمة علىٰ الخير والحب.

[نعم] للزعيم الفذ الذي حقق للمواطن حريته وكرامته واستقراره، وضمن له الأمن والاطمئنان.

[نعم] للرئيس الإنسان ذي الصفات البارزة والخصائص المميزة، سلامة الحكم، بعد الناظر، ووضوح الرؤية، قوة الإقناع، شجاعة القلم، صلابة الموقف، جرأة التنفيذ.

[نعم] للبطل الذي رفع رأس المواطن عاليًا وحطّم أدعياء الزعامة ودعاة الانهزامية والاستسلام.

[نعم] لرائد نهضتنا الذي أحيا في النفوس أنبل معاني الفداء، وشحن القلوب بالأمل في مستقبل مشرق مضيء، وأعاد الثقة في قدرة هذه الأمة علىٰ الثبات والتحدّي مهما عظمت الخطوب ومهما كبرت التضحيات.

[نعم] لحافظ الأسد وعهدًا عهد الأوفياء أن نفتدي وطننا وقائد مسيرتنا بالمُهج والأرواح.

إن مكانك أيها الرائد العظيم في قلب الشعب، ووجودك راسخًا في كيانه، عميقًا في وجدانه، أثيرًا في نفسه، وقد أصبح اسمك الكريم أنشودةً تحفظها الأجيال وتردّدها الملايين.

سرْ علىٰ بركة الله أيها الرئيس القائد والله معك يحفظك برعايته وعنايته ويبارك خطاك).

تعليق:

تعالوا نكرر بعض هذه الأوصاف التي وصف بها حافظ الأسد:

(قائد عظيم.. رجل حكيم... مخلص أمين !!.. يسع قلبه الكبير تطلعات الجماهير... القائد الشجاع الذي سطع نوره في وهج الحركة التصحيحية المظفرة... الزعيم الفذ الذي حقق للمواطن حريته وكرامته واستقراره !! أصبح اسمك الكريم -الأسد- أنشودةً تحفظها الأجيال وترددها الملايين).

لو كان الشيخ يتحدث عن: خالد بن الوليد، أو أبي عبيدة عامر بن الجراح، أو سعد بن أبي وقاص لقلنا: أسرف الشيخ في ثنائه وتجاوز الحدود، فكيف إذا كان يتحدث عن مجرم سفّاك استباح دماء وأعراض المسلمين، وقتل عشرات الآلاف من المسلمين السنّة داخل السجون وخارجها، وقتل مثل هذا العدد في لبنان؟! وأي حرية حقّقها الأسد في ظل قانون الطوارئ الصارم؟!

أما العقيدة التي يؤمن بها سيد الشيخ، وتدين بها طائفته القرمطية فالشيخ من أعلم الناس بخروجها عن ملة الإسلام، وهذا موضع إجماع عند أهل السُّنة وأهل الشيعة، ولو قلنا:

لم يمرّ علىٰ السوريين نظام أسوأ من هذا النظام لما قلنا إلا الحقيقة التي يشهد بها كل مسلم حي الضمير إذا توفّرت له أجواء الحرية.

ومن أجل أن يدرك القراء خلفيات هذا الشيخ نروي لهم القصة التالية:

في عام ١٣٩٥ه عُقد في مكة المكرمة المؤتمر العالمي للمساجد، وعلىٰ هامش المؤتمر التقىٰ الشيخ عبد الستار السيد مع أحد كبار الدعاة السوريين المعارضين للنظام، وكان مما قاله له:

الشيخ فلان كتب لي مهنّئًا عند استلامي للوزارة ووقفت في رسالته عند العبارة التالية:

«**أعزّ الله بكم دينه، فما هذا النفاق: لقد أذلّ الله بأمثالي دينه، ولكنني أحاول تقليل المظالم التي تحدث**». وقد يستغرب القارئ الكريم استخدام الشيخ لمثل هذه الكلمات الجارحة. ولكن من يعرفه لا يعتريه أي استغراب، فهو سليط اللسان لا يدّخر نفسه ولا محدّثه [إن لم يكن له شأن] من الألفاظ المسفّة.

إلا أن هذا الشيخ الذي يعرف قدره في حديثه لمن يثق به خير من ابنه الذي يتولّىٰ شؤون وزارة الأوقاف في هذه الأيام، وأقل خطرًا من مفتي سورية السابق الشيخ أحمد كفتارو الذي جنّد طلابه خطباء في معظم مساجد دمشق وغيرها للدفاع عن النظام وتسويغ أخطائه.

وعبد الستار السيد وأحمد كفتارو خير آلاف المرات من مفتي سورية الحالي بدر الدين حسّون الذي يُردّد مقولات الرافضة ويتبناها بأسلوب يتعمّد فيه المراوغة.

هذا الغلوّ الذي يستخدمه النظام الباطني في فرض شيوخ هو يختارهم حسب مقاييسه ومواصفاته قابله غلوّ من بعض الشباب وتجمعات أهل السُّنة، فاعتبروا هؤلاء الشيوخ مرتدّين عن الإسلام، وكان الظلم والقهر الذي يمارسه النظام يخدم موقفهم المؤسف، ولهذا فقد قتلوا أكثر من شيخ في حلب، وطاردوا آخرين في دمشق، فأطلقوا النار عليهم، وأصيب أحدهم برصاصة في فمه فأصبح غير قادر علىٰ الخطابة، لكنه استمر يكتب التقارير لأجهزة الأمن... ثمّ كثر النفاق وراجت بضاعتهم في العقود الأربعة الماضية من أناس يتسربلون بسربال العلم والمعرفة، ويتدثّرون بدثار التقوىٰ والورع.

- فمنهم من أباح المعاملات الربوية وشنّ حملات ظالمةً ضدّ البنوك الإسلامية.
- ومنهم من زعم أن أحكام الشريعة الإسلامية مطبّقة في مصر، لأن القانون المدني

مستمد من أحكام الشريعة، وهو أول من يعلم بأنه يكذب في هذا الادعاء.

- ومنهم من زعم أن أهل الجنة يعيشون حالة من الفرح ليس لها مثيل من قبل لأنهم يستعدّون لاستقبال أحد أبناء الطغاة الذي أهلكه الله سبحانه وتعالىٰ، والولد سرّ أبيه.

- ومنهم من سمعته أذناي، كما سمعه مثلي مئات المصلين الذين كانوا يصغون إليه وهو يخطب الجمعة، وينسب إلىٰ رسول الله ﷺ -في حديث حبكه- قوله: (... ثم يأتي جمال الدين فينتصر كما انتصر صلاح الدين) يريد من وراء هذا الكذب علىٰ رسول الله ﷺ التزلف إلىٰ نظام جمال عبد الناصر.

- ومنهم من وضع شروحًا وحواشي لخطبة من خطب وليّ أمره مع أن مثل هذه الخطب تعتبر مادةً لنوادر وطرائف يتناقلها الناس ويشبعون ضحكًا منها وسخريةً بها.

- وأكثر هؤلاء أفتوا بإباحة دماء العلماء والدعاة الذين أقدم الجلاّدون علىٰ سفك دمائهم من غير حق.

وقصارىٰ القول: فإن هؤلاء المحسوبين علىٰ زمرة العلماء يؤثرون الدنيا علىٰ الآخرة، ويأكلون بألسنتهم، ويأمرون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم، ومن كان منهم عالمًا فإنه ممن لم ينتفع بعلمه... وهذه الصفات تدفعهم إلىٰ الإفتاء بكل ما يطلبه الظلمة منهم.

عبد العزيز كامل:

[١٣٣٨-١٤١١هـ الموافق ١٩١٩-١٩٩١م]

وُلد بالإسكندرية، وحصل علىٰ الدكتوراه في الجغرافية من كلية الآداب بجامعة

القاهرة. تولىٰ عددًا من المناصب؛ فكان أستاذًا بالجامعة، واختير وزيرًا للأوقاف، ونائبًا لرئيس الوزراء. ثم كان رئيسًا لجامعة الكويت، ومستشارًا لأمير دولتها، له عدد من المؤلفات، منها : [آية وقصة]، [الإسلام والتفرقة العنصرية]، [الإسلام والعروبة في عالم متغير]، [دروس في سورة يوسف]، [مع الرسول والمجتمع في استقبال القرن الهجري الخامس عشر]، [الإسلام والمستقبل]، وله أيضًا كتب أخرىٰ.(١)

وكان عبد العزيز كامل من السابقين الأولين في جماعة الإخوان المسلمين، وتوّلىٰ فيها مسؤوليات دعويةً تربويةً وقام بها خير قيام، وكنت أحد المعجبين برسائله ومؤلفاته ومواقفه، للأسباب التالية:

أولاً: كان متجرّدًا في دعوته وأنشطته، ينأىٰ بنفسه عن سياسة المحاور وصراعاتها علىٰ مراكز القيادة، ففي حادث ما سُمّي صراع [الأفندية] مع [الشيوخ] حول اختيار المرشد العام الذي يخلف الشيخ حسن البنا... وفي حادث الانشقاق الذي قاده التنظيم الخاص بدعم من بعض الشيوخ ثم سيطرة هذا التنظيم علىٰ المركز العام، ومحاصرة الأستاذ حسن الهضيبي في منزله، كان عبد العزيز كامل رجل وفاق (٢) وإصلاح، ولم يُحسب علىٰ هذه الجهة أو تلك.

ثانيًا: عشت شطرًا من حياتي علىٰ ثقافة الخطب والمحاضرات والندوات العامة [وكذلك كان من هم في مثل سِني أو أكثر]، وكانت الخطب [الرنانة] تترك أثرًا في نفوسنا

---

(١) إتمام الأعلام. د. نزار أباضة ومحمد رياض المالح.

(٢) كان سيد قطب رائدًا لهذه المدرسة الإصلاحية التوافقية التي تبتعد عن سياسة المحاور. ومن شاء مزيدًا من المعلومات فليعد إلىٰ كتابي: [مساجد الضرار].

يجعلنا نحفظ مقاطع منها.. ثم استيقظت من غفلتي فوجدت أن عبد العزيز كامل أول من التفت إلىٰ هذه الظاهرة السلبية، فنقدها وحذّر منها، ودعا إلىٰ التزام الشباب بمنهج يقوم علىٰ التعمّق في فهم الأمور، والعودة إلىٰ الكتاب والسُّنة وسيرة المصطفىٰ ﷺ ومن تبعه من رجال خير القرون، وكان ما كتبه من مقالات وأبحاث يدرّس في قسم الأُسَر بجماعة الإخوان المسلمين، فأعجبت بها واستفدت منها، ودرّست بعضها لطلابي.

ثالثًا: تعرّض الإخوان المسلمون إلىٰ محنة بعد حرب فلسطين، واستمرت حتىٰ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م، ولم تكن كالمحنة التي تعرّض لها الإخوان وغيرهم من المسلمين طوال حكم عبد الناصر، لكنها كانت قاسيةً، فقد دبّر النظام الملكي حادث اغتيال المرشد العام الشيخ حسن البنا في حين كان الإخوان المسلمون مغيّبين في السجون والمعتقلات.

كان عبد العزيز كامل سيد قطب هذه المرحلة -إن صحّ هذا التعبير- وفيما يلي عناوين بعض المقالات التي كان يكتبها في مجلة الدعوة عام ١٩٥١م، وسأنقل بعض الفقرات:

- فإذا تململ بعض الدعاة، واشتكوا من الصعوبات، التي يتعرّضون لها كتب تحت عنوان: [**هذه دعوتنا**].

(.. إن قمة الجبل هي أعلىٰ جزء فيه، ولكنها أشدّ أجزائه تعرّضًا للعواصف والزوابع، وهي التي تقاسي برودة الجو، ولكنها مع هذا هي التي تحدّد لنا ارتفاع الجبل وكل جزء من أجزائه ينسب إليها.

لي أخ حبيب... نقلته الحكومة في أثناء المحنة الأخيرة إلىٰ الصعيد، فكتبت إليه خطابًا في هذا الأمر كان تعليقًا علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأعراف:٨٢]).

- وفي مقال ثالث يقول:

(في حديث بيني وبين أحد الأصدقاء حول الموقف الحالي:

وماذا عليكم لو سالمتم القوم وأنتم الآن في محنة، لقد تحالف النبي ﷺ مع اليهود!! وهذه الكلمة التي نسمعها للأسف من بعض الذين يعطفون علىٰ الفكرة الإسلامية، ومن بعض العاملين لها حين تسوّل لهم نفوسهم أن يستريحوا من تبعات الجهاد... ثم يرد علىٰ هذه المقولة داعيًا إلىٰ الثبات علىٰ الحق ويبيّن أبعاد وبنود اتفاقية الرسول ﷺ مع اليهود).

- وفي مقال رابع يتحدث فيه عن الورد القرآني وسحرة فرعون ثم يختم بقوله:

(وفي محن الدعوات قد لا نكون في حاجة إلىٰ علم جديد.. فنحن نعرف الحق والباطل جيّدًا.. ولكننا في حاجة إلىٰ صور مؤمنة، تزيد قوة الإيمان في نفوسنا فلا نضعف أمام الظلم مهما برز بقوته وعنفه وتوعّد المؤمنين بالصلب والقتل والتشريد).

- وفي مقالات عديدة تحدث فيها عن المحن التي تعرض لها رسول الله وأصحابه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم، وعن غزوة أُحُد التي انتصر فيها المشركون... وقد جمع هذه المقالات في كتابين: [دروس من غزوة أحد] و [صور من العهد المكي].

وفي كل ما كتب في هذه المرحلة كان يندّد بالطغاة والطغيان، ويدافع عن الإخوان وعن مرشدهم الأول، وبراءتهم من كل ما حاول النظام الملكي اتهامهم به مثل سيارة الجيب وغير ذلك.

رابعًا: التجأ الأستاذ عصام العطار في عهد النظام العسكري الذي تزعّمه العقيد أديب الشيشكلي إلىٰ مصر، وسكن في شقة مجاورة للشقة التي كان يسكنها عبد العزيز كامل ووالدته. أجل سمعت من العطار ثناءً عليه في جواره وفي صحبته لا سيما وأنه كان يساعده في الإشراف علىٰ قسم [1] الأُسَر في الإخوان [كما أظن]، كما حدثنا الأستاذ عصام العطار عن وعيه واستقامته وحسن فهمه للأمور، وبعده عن مواطن الشبهات.

كذلك كان عبد العزيز كامل، ولهذه الأسباب الأربعة فقد أحببته، وكنت أقرأ بنهم كل ما يصلني من كتبه ومقالاته؛ لكنّ الرجل بعد محنة الإخوان عام ١٩٥٤م لم يعد كما كان عليه من قبل، وتحوّل إلىٰ إنسان آخر يهاجم الإخوان ويتهمهم بمختلف الاتهامات وينتصر لسيّده الجديد ضدهم.. ثمّ لمع نجمه فاختاره عبد الناصر وزيرًا للأوقاف. وإذا كان الباقوري من اختاره عبد الناصر في حملته ضدّ الإخوان عام ١٩٥٤م ليكون خطيبه ووزيرًا لأوقافه، فإنّ عبد العزيز كامل هو الذي وقع عليه اختيار الطاغية في محنة الإخوان بل محنة المسلمين عام ١٩٦٥م فاستلم مقاليد وزارة الأوقاف التي تبوّأ إثمها في تلك الظروف الحرجة حيث استُنفرت وتحوّلت إلىٰ أقسام تعمل ليل نهار، فقسم مسؤول عن إعداد الخطب التي تُلقىٰ يوم الجمعة، وتنص علىٰ تضليل وتفسيق الإخوان، ثم يتبارىٰ الخطباء في مختلف أرجاء مدن وقرىٰ وأحياء مصر في كسب ودّ مسؤولي الأوقاف وأجهزة الأمن.

وقسم تبرز مواهبهم في إصدار الفتاوىٰ، وكتابة المقالات.

وقسم ثالث يعمل داخل السجون بالتنسيق مع رجال الأمن، وتنظيم الدروس لشيوخ

---

(١) مجموع الحلقات التي يتألّف منها الإخوان، والمناهج التي تدرّس لهم.

هذا القسم، وكان الله في عون من يرد علىٰ الشيخ ويصحّح له أخطاءه، أما الوزير فهو الذي يقود الحملة التي يقوم بها رجال وزارته، وفيما يلي ننقل فقرات من مقال كتبه في العدد السابع عشر من مجلة [**الاشتراكي**] الصادرة بتاريخ ١٨/ ٩/ ١٩٦٥م تحت عنوان [**عندما تختفي الخيانة وراء الدين**].

(المؤامرة الأخيرة للإخوان المسلمين ليست جديدةً في تفكيرها المنحرف، واستغلال الدين خدمةً للمطامع والرجعية والاستعمار.

ولقد قابل الإسلام نفسه مؤامرات من هذا النوع عند قيامه، وكان الرسول ﷺ حاسمًا في القضاء عليها، وسجّل الله أمرها في القرآن الكريم، وكان مجتمع المدينة يلقىٰ عداوات مريرةً ظاهرةً وخفيةً من المنافقين الذين كانوا طابورًا خامسًا في المدينة يثير الفتنة بعد الفتنة وينقل أخبار الجبهة الإسلامية إلىٰ أعدائها في مكة.

واستغل المنافقون الدين ليستروا وراءه مؤامراتهم، وقام رجل منهم هو أبو عامر الراهب من قبيلة الخزرج ليتولّىٰ تنظيم المؤامرة والاتصال بالمصادر الخارجية ليحصل منها علىٰ المال والتأييد.. وقد سبق لأبي عامر أن ساهم في حفر كمائن ليقع فيها المجاهدون من المسلمين في غزوة أُحُد.

ووقع الرسول ﷺ في حفرة منها، وأدىٰ هذا إلىٰ جرح وجهه وكسر رباعيته وشُجّ رأسه... وحاول المنافق في الموقعة أن يستميل قومه من الخزرج لينقلبوا علىٰ الرسول فنالوا منه وسبّوه وانصرف عنهم غاضبًا ليلحق بأرض الروم.

وتمّ اتصال بين المنافقين والروم يمثّله أبو عامر الراهب، وتبع ذلك تمويل من مصادر خارجية. وبقي بعد ذلك تكوين [المجموعات] في داخل المدينة واتخاذ [وكر] لها

تجتمع فيه، وتتلقّىٰ التمويل والسلاح لضرب القاعدة الإسلامية في المدينة.

وأخذت الرسائل تروح وتجيء بين أبي عامر بعد فراره، وبين بعض الذين استطاع إغواءهم واستمالتهم من المنافقين، وذهب نفر من هؤلاء يدبّرون أمرهم، واتفقوا علىٰ بناء مسجد مجاور لمسجد قُباء في ضواحي المدينة وأتمّوا هذا، وأحكموا بناء المسجد، واتخذوا وكرًا يقصده رسل أبي عامر إذا جاؤوا من أرض الروم يحملون توجيهاته. وأرادوا أن يغطوا عملهم هذا، وأن يعطوه صفته الشرعيّة، فذهبوا إلىٰ الرسول قبل خروجه إلىٰ غزوة تبوك لحرب الروم، وسألوه أن يصلي في مسجدهم، ذاكرين أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلّة في الليلة الشاتية. ولكنّ الرسول لم يذهب معهم قائلاً! [إنا علىٰ سفر] وعلم الرسول أمر المسجد وهدفه الحقيقي، وأنه وكر للتآمر، وأنه حلقة الاتصال بين الخيانة الداخلية والتمويل الخارجي.. فبعث إلىٰ هذا المسجد من هدمه قبل أن يدخل الرسول المدينة. وفي هذا نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [سورة التوبة:١٠٧].

وأوجه الشبه قوية بين المؤامرة القديمة والمؤامرة الأخيرة:

١- هناك أحقاد علىٰ الثورة الإسلامية، وخصوصًا بعد نجاحها. ويقابل هذا الآن أحقاد من الرجعية تزداد في النفوس المريضة كلما حقّقت الثورة انتصارًا جديدًا.

٢- لم تكن الخيانة القديمة وقت ضعف للمسلمين، وإنما كانت قبل غزوة تبوك، أي بعد الانتصارات الرائعة التي حقّقها الرسول في غزوة الأحزاب وخيبر وفتح مكة.

وهذه الخيانة الجديدة كانت بعد انتصارات رائعة داخلية وخارجية في ميادين بور سعيد.. والقوانين الاشتراكية.. وبدء خطة التصنيع الثقيل.

٣- كانت المؤامرة القديمة بتوجيه من بعض المنافقين الفارّين من المدينة كأبي عامر الراهب.. وقد دعا عليه الرسول أن يموت بعيدًا طريدًا.

والمؤامرة الأخيرة بتوجيه من الاستعمار.. وفيها استخدام بعض المنافقين الفارّين الذين احترفوا الخيانة والتجارة بالدين كسعيد رمضان!!

٤- كانت المؤامرة القديمة تموّلها مصادر أجنبية تمثّلها دولة الروم.

والمؤامرة الجديدة تمدّها مصادر أجنبية يمثلها الحلف المركزي!!

٥- اتخذت المؤامرة القديمة وكرًا تتستّر فيه باسم الدين، وكذلك فعلت المؤامرة الأخيرة حين تستّرت باسم الدين!!

٦- قال الذين تولوا أمر المؤامرة القديمة أنهم جعلوا المسجد للضعفاء وأصحاب العلّة، وقال أصحاب المؤامرة الجديدة: إنهم كانوا يجمعون المال لأهداف اجتماعية!!

٧- استطاع أصحاب المؤامرة القديمة تجنيد عدد من المنافقين، وكذلك فعل أصحاب المؤامرة الجديدة!!

٨- نجا مجتمع المدينة من المؤامرة، ونجا قائد الإسلام الأول من أخطارها، كما نجّىٰ الله مجتمعنا العربي من المؤامرة، وحفظ برعايته قائد العروبة المناضل جمال عبد الناصر من خطرها).

تعليق:

(وكم بمصر من المضحكات) بذا قال أبو الطيب، لقد شبّه عبد العزيز كامل جمال عبد الناصر برسول الله ﷺ، كما شبّه قادة الإخوان وفي مقدّمتهم سيد قطب بالمنافقين،

وما زال في عيون الناس ماء ويعرفون من هو سيد، ومن هو عبد العزيز كامل؟

ولم يجد شيخ نظام عبد الناصر مثيلاً للانتصارات الرائعة التي حقّقها الرسول وأصحابه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم في غزوة الأحزاب، وغزوة خيبر، وفتح مكة إلا ما أسماه انتصارات حقّقها سيده أتدرون ما هي؟! إنها القوانين الاشتراكية، ومعركة بور سعيد، والتصنيع الثقيل!!

إلا أن الوحي هو الذي أخبر الرسول الله ﷺ عن حقيقة هذا المسجد ولولاه لصلَّىٰ رسول الله ﷺ فيه، أما عبد الناصر فأخبرته أجهزة الأمن التي تعد الظلم نهجًا لها.

وأخيرًا، هذا مقال واحد من مقالات عديدة علىٰ هذه الشاكلة نشرها عبد العزيز كامل في مجلة الاشتراكي، ولينظر من شاء إلىٰ أعدادها [١٨و ١٩ و ٢٩] فسبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر، ونسأله جلّ وعلا حسن الخاتمة.

شيوخ آخرون:

أصدر المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية كتابًا أسموه: [رأي الدين في إخوان الشيطان]، وهو عبارة عن بيانات وفتاوىٰ لعدد من علماء الأزهر وفي طليعتهم [الإمام الأكبر شيخ الأزهر]، وجاء هذا الكتاب بعد الاعتقالات الواسعة عام ١٩٦٥م والتي شملت: سيد قطب، حسن الهضيبي، عمر التلمساني، وعشرات من شيوخ وطلاب الأزهر كان منهم الشيخ محمد الأودن وغيره رحم الله الجميع. وفيما يلي أسماء بعض الشيوخ الذين وردت أسماؤهم في هذا الكتاب:

- الإمام الأكبر حسن مأمون، وكان شيخًا للأزهر، وعنوان فتواه: [**رأي الإسلام في مؤامرات الإجرام**].

- الشيخ محمد محمد المدني. [**أبهذا يأمر الإسلام؟!**].

- الشيخ عبد الله المشد . [**الإسلام يدعو إلىٰ السلام ويمقت الإرهاب**].

- الشيخ محمد زكريا البرديسي. [**فتنة الاستعمار**].

- الشيخ محمد كامل الفقي. [**أسلوب الدعوة الإسلامية**].

- الشيخ عبد الرحيم فرغل البليني. [**الإخوان المسلمون يفسدون في الأرض، فما حكم القرآن في أهل الفساد؟**].

- الشيخ عبد العزيز قنديل. [**المفسدون في الأرض**].

- الشيخ حنفي عبد المتجلي. [**خروج الإخوان علىٰ الإسلام**].

وهناك أسماء أخرىٰ كرهت ذكرها لأنهم غيّروا مواقفهم وأصبحوا يكتبون عن عهد عبد الناصر كتابات مشابهةً لما يكتبه الإخوان.

أما أهم ما جاء في بيانات وفتاوىٰ شيوخ الأزهر فنوجزه فيما يلي:

- تحدثوا عن اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، وأشادوا بزهده وتقواه وعدله في رعيته، وشبّهوا جمال عبد الناصر به، ثم تساءلوا :

(ألم يكن الشرق كله يرسف في أغلال الذل ويعاني من طغيان الطغاة وأساليب المستعمرين، فنهض به نهضةً كبرىٰ جعلت منه دولاً وشعوبًا تعرف حقّها، وتكافح في سبيله...).

ثم تحدثوا عن إنجازاته، ومنها تأميم قناة السويس، وبناء السدّ العالي، وتحطيم الإقطاع، وكسر احتكار الأسلحة... ثم شبهوا الإخوان وكلّ من زجّ النظام بهم في سجونه بالخوارج الذين اغتالوا عليًّا بن أبي طالب ﷺ، وكفّروا الناس بالكبيرة، ثم عادوا ليشبّهوا المجني عليهم من الدعاة باليهودي عبد الله بن سبأ الذي تظاهر بالإسلام لتمزيق وحدة الأمة تحت شعار الولاء لآل البيت، فانظروا إلىٰ هذا الخطيب فالمجني عليهم: مجوس، وخوارج، وشيعة.

- (ومن أغرب ما يكون أن يرىٰ بعض النساء المجرمات في طليعة هذه الحركة، الآثمة، يوزّعن النقود والأسلحة تحت ستار البراقع وغطاء الجلابيب).

- موالاة أعداء الله، وقد توسّعوا في حديثهم عن ارتباط هذه الجماعة مع المستعمرين، ومن ذلك قول شيخ الأزهر:

(وإني أعجب أشدّ العجب ممن يدّعي الإسلام والغيرة عليه، كيف يسوغ له أن يوالي أعداء الإسلام، وأن يأخذ منهم مقوّمات الفتك بالمسلمين، ويستعين بمالهم علىٰ أخوة له في الدين والوطن والإنسانية ألا ساء ما يدّعون وبئس ما يفترون، ألم يقرؤوا قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [سورة المائدة:٥١] ... ألم يقرع سمعهم قول الله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة:٢٢].

- الإفتاء بكفر المعتقلين من العلماء والدعاة، فالشيخ حنفي اتخذ لفتواه العنوان الآتي: [**خروج الإخوان علىٰ الإسلام**]، واستدل هو وغيره بظاهر النصوص: «**من غشّنا فليس منا**»، «**من حمل علينا السلاح فليس منا**» ثم ختم كلامه بقوله: (الإخوان المسلمون بأفكارهم الجديدة المنسوبة للإسلام لا يمتّون إلىٰ الإسلام بصِلة).

- دعوة النظام إلىٰ البطش بهم، وألّا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة مستدلّين بقول رسول الله ﷺ: «**ومن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان**». ويقول الشيخ عبد الرحيم فرغل البليني: (كنا نود اجتثاث هذه الفئة من أصولها، والقضاء عليها قضاء نهائيًّا... كالقضاء علىٰ العضو الخبيث في جسد الإنسان).

ويسترسل هو وغيره في ذكر الأدلة علىٰ ذلك ومنها أن الرسول ﷺ نفّذ حدَّ القصاص في الجُناة، ولم تأخذه بهم رحمة ولا رأفة، وسار الخلفاء علىٰ نهجه ﷺ... وها هو هارون الرشيد أباد البرامكة، فقد حدثنا التاريخ أنّ الرشيد كان يجلس فوق أريكته يستمع أناشيد الشعراء فأسمعه بعض الشعراء:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجدُ

واستبدَّت مرّةً واحدةً ... إنما العاجز من لا يستبدُّ

فضرب الأرض بعصا، وقال: إنما العاجز من لا يستبد، وأمر الجنود بإبادة البرامكة، وإنّ أمر الإخوان المسلمين كأمر البرامكة يحتاج إلىٰ وثبة تطهّر منهم الأرض، وتمحو آثارهم.

إنها فتاوىٰ فريدة من نوعها، فمن شعر محبّ هند يستمدّ الشيوخ أدلتهم، ومن فِعل هارون الرشيد بالبرامكة تظهر لهم النصوص الشرعيّة!! التي لا يشكّون بصدقها. والأغرب من هذا وذاك أنّ ما قالوه وأوصوا به جاء قبل أن يقول القضاء كلمته، ولو كان هذا القضاء عسكريًّا، ولقد كذبوا في أمور كثيرة:

فالإخوان المسلمون لم يكن لهم علاقة بهذا التنظيم؛ فسيد قطب فلم يسبق أن شارك في مثل هذه الأنشطة السرية، ولكن عندما التجأ إليه هؤلاء الشباب أراد صرف أنظارهم إلىٰ أعمال دعوية أكثر نفعًا، ولكنّ الأحداث فاجأتهم، والعدوّ الموتور كان يبحث عن أية وسيلة للبطش بسيّد[1] وليس بعلي العشماوي وغيره.

لم يكن لهذا التنظيم صلة لا بالإخوان ولا بسيّد،[2] والقائمون عليه شباب رأوا وسمعوا ما يعانيه الإخوان في سجونهم، فأرادوا بتنظيمهم الانتقام ممن بطش بآبائهم وذويهم، وكان ذلك بعد أعوام قليلة من محنة الإخوان عام ١٩٥٤م.

وكانت هذه هي ردّة الفعل الأولىٰ، وفيما يلي ننتقل إلىٰ داخل السجون لنرىٰ ردة الفعل الثانية التي يتحمّل وزرها النظام وشيوخه بفتاويهم.

---

(١) انظر كتابي [مساجد الضرار].

(٢) مرة أخرىٰ أقول عندما التقوا بسيد كانت كل أمورهم قد وصلت إلىٰ الحالة التي اكتشفها التحقيق.

ماذا كان يجري داخل السجون؟:

سوف نترك الحديث عما كان يلقاه المعتقلون داخل هذه السجون للمدعو [علي محمود] وهو صحفي مصري زجّ به نظام عبد الناصر في معتقل [ليمان طُرّه]، وما كان [علي محمود] من العاملين في الحقل الإسلامي، بل ولم يكن متديّنًا، وكذلك كان حاله عندما كتب هذا المقال في مجلة الأسبوع العربي اللبنانية بعد اغتيال الدكتور محمد حسين الذهبي بأيام قليلة.

عاش علي محمود مدّةً من الزمن داخل سجن ليمان طُرّه مع شكري مصطفىٰ سنة ١٩٦٨م، وسمع كثيرًا من الأمور، كما شاهد بعينه الويلات والمصائب، وكان مما سمعه من شكري ما يلي:

«**كان المسلمون، شبابًا وكهولاً، يرزحون تحت وطأة عذاب جهنمي فوق طاقة البشر، لا لذنب جنوه إلا أنهم كانوا ينتمون إلىٰ جماعة الإخوان المسلمين**».

وتحت وطأة السياط والكيّ بالنار والنفخ ونهش الكلاب والجوع والمهانة، مات من مات، وجُنّ من جُنّ، واستكان الباقون وفوّضوا أمرهم إلىٰ الله؛ كنّا نمشي فوق قطع الزجاج فتدمىٰ أقدامنا -الكلام هنا كله لشكري- وكنّا نصلي لله بعيوننا، فقد كُبّلت أيدينا وشُلّت أجسامنا. وكانت حقبةً قاسيةً في معتقل أبي زعبل والسجن الحربي والقناطر والقلعة والواحات وقنا وغيرها، حقبة غسيل الدماغ التي زلزلت الشباب فهتفوا لحسن الأول وحسن الثاني وسلكوا الطريق ضدّ الأديان!

نعم.. هناك ابتُلي المسلمون وزلزلوا زلزالاً شديدًا، حتىٰ إذا خفّت وطأة العذاب وتوافرت لنا فسحة لمراجعة النفس، وعوّلنا علىٰ تقييم الأمور بعيون المؤمنين وعقول

الواعين لماهية العقيدة.

لقد انتشرت نزعات الكفر في مجتمعات المسلمين، أو سرت تمور في جسد الأمة كالسمّ الزُعاف لدرجة فاقت جاهلية ما قبل الإسلام، عندئذ رجعنا إلىٰ أفكار الشهيد سيد قطب، وهو الذي طرق باب أزمة العقيدة في كتابه [**في ظلال القرآن**] حيث دقّ ناقوس الخطر محذّرًا من جاهلية القرن العشرين.(١)

وهنا نرىٰ في عالمنا -عالم الكفر البيّن- كيف أن الزنا بات يُمارس علىٰ قارعة الطريق، وكيف انتشرت بيوت الدعارة ودور الخلاعة، وكيف أصبح الشباب يدورون في معترك الضياع يمزقهم الكفر، ﴿**وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾**﴾ [سورة الحشر:١٩].

وفي موضع آخر من مقالات علي محمود وصف عملية [**غسل الدماغ**] ومراحلها فقال:

١- **مرحلة التسخين**: وهذه المرحلة حتمية لا بدّ منها لكل المعتقلين حتىٰ يعتادوا علىٰ الخنوع وتلين عريكتهم ويجهّزوا للتحقيقات. وهي تشتمل علىٰ [التعليق] بأن توضع معصما المعذّب في أصفاد، ثم يحتضن ركبتيه بعد أن يوضع عامود من الحديد تحت ثنيتي الركبتين ثم يُرفع المعذَّب إلىٰ أعلىٰ، ويُوضع طرفا العامود فوق عارضتين من الخشب، عندئذ يسقط الرأس إلىٰ الوراء وترتفع القدمان إلىٰ أعلىٰ والمعذَّب في هذه الحالة عارٍ من كل ثيابه تمامًا كما ولدته أمه، ثم يُصار إلىٰ ضربه بالسياط علىٰ رجليه إلىٰ

(١) من الجدير بالذكر أن أفكار وتصورات هذه الجماعة لا يربطها رابط بسيد قطب رحمه الله، وقد فصّلت القول في هذه الجماعة في كتابي [الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو]، الجزء الثاني.

أن يفقد وعيه.

٢- مرحلة الترويض: وهي التي تتخلّل مراحل التحقيق، إمعانًا في ممارسة الضغوط الجسدية وظنًّا أنها تجبر المعذَّب علىٰ أن يفرغ رأسه من كلّ ما بها من معلومات، وهي تشمل التعليق والنفخ وصدمات الكهرباء.

٣- مرحلة التبخير: وهنا تشدد الضغوط، بأن تطلق الكلاب الشرسة تنهش من جسد المعذَّب في أجزاء بين الفخذين، وتنزع أظفاره، ويوضع في أحواض مليئة بقطع الثلج، ويستمر هذا إلىٰ أن يبول الأخ المسلم علىٰ نفسه، ويبدأ في الهذيان.

٤- مرحلة الإذابة: يستمر التعذيب المركّز الطويل إلىٰ أن ينسىٰ المعذَّب اسمه ويبدأ يعلن الكفر، وهنا يكون الدفاع قد وصل إلىٰ حالة سمّوها [الشلل الوقائي]، وهي المرحلة المثلىٰ لصبّ أفكار تناقض عقائده، عندئذٍ تتم عملية غسل الدماغ وتحويل العقيدة في رأسه.

وفي موضع ثالث يمضي الصحفي المصري [علي محمود] في الحديث عن مشاهداته وذكرياته عن أيام سجنه، فيذكر حادثتين لهما دلالات مؤسفة جدًّا:

الحادثة الأولىٰ: بعد نكسة [١] عام ١٩٦٧م سمحت سلطات المعتقلات لنا بممارسة بعض أنواع الهوايات. وكان السبب في هذا التنازل أن الصليب الأحمر الدولي قد تمكّن من إقناع السلطات بالسماح للمعتقلين اليهود بمثل هذه الامتيازات، فكان أن حظي المعتقلون كلهم بمثل ما نال اليهود.

---

(١) إنها هزيمة وليست نكسة، ومن المؤسف أنّ بعض الكتاب الطيبين يستعملون مثل هذه الألفاظ دون الانتباه إلىٰ مدلولاتها.

الحادثة الثانية: ألم تضبط في جامع؟!

زار مدير المباحث العامة اللواء حسن طلعت أحد المعتقلات أعقاب هزيمة ١٩٦٧م، وعوّل رغم جهله الشديد علىٰ مقارعة المعتقلين حجّةً بحجة ورأيًا برأي.

وحدث أن نهض شاب دون العشرين وشكا الاعتقال وتساءل لماذا استمر اعتقاله رغم أنه لم ينتمِ إلىٰ جماعة أو فكرة، وهنا همس المقدّم سلومة شيئًا في أذن اللواء الذي لم يلبث أن زأر:

(ألم تُضبط في جامع؟ عندما أمسكوا بك، ألم تكن في جامع؟ كيف تدّعي إذًا أنك لا تنتمي إلىٰ فكرة أو جماعة؟ اجلس).

عندئذ هتف الشيخ عارف [مفتش وعظ بمساجد الدلتا]:

(لو ضبطوك في بيت دعارة أو في خمارة لأفرجوا عنك. أما أن يضبطوك في جامع فالويل لك).

انتهت الفقرات التي نقلتها من مقالات الصحفي المصري [علي محمود].

وإذا كانت عباراته قد اختلطت بعض الشيء بعبارات شكري مصطفىٰ، فما نُشر قبل هذه المقالات وبعدها من وثائق يؤكد أنّ الذي كان يلقاه الدعاة داخل المعتقلات المصرية أضعاف أضعاف ما وصفه علي محمود، ونكتفي هنا بنقل فقرة من حيثيات حكم المحكمة العسكرية العليا في نهاية سنة ١٩٧٦م:

(إن المحكمة لتسجّل بحق أن الجريمة موضوع هذه الدعوىٰ [تعذيب] كانت سُبّةً في جبين الحكم المصري، يندىٰ لها خزيًا وعارًا، ولعل في حكم المحكمة ما يسدل علىٰ

حقبة من تاريخ مصر امتُهنت فيها وأُهينت كرامة الإنسان، الذي كفل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان حدّها الأدنىٰ، حقبة من تاريخ مصر كانت فيها السيادة للسياط توصّلاً للإرهاب وللإلقاء في غياهب السجون أو تقرّبًا زلفىٰ للحكام والرؤساء، حقبة من تاريخ مصر تضاءلت فيها سمعة سجن الباستيل بفرنسا وطغت عليها سمعة السجن الحربي بمصر، حقبة من تاريخ مصر أعادت إلىٰ الأذهان ذكرىٰ محاكم التفتيش وما كان يجري فيها من مخاز وفظائع، حقبة من تاريخ مصر تسابق فيها الجلادون إلىٰ ابتكار وسائل التعذيب) اهـ.

يبدو أن قضاة المحكمة العسكرية الذين عاقبوا بعض الجلادين أيام العهد الناصري، قد صحت ضمائرهم، وثابوا إلىٰ رشدهم، ثم عادت السياط تنهش أجساد الدعاة إلىٰ الله في مصر وعدد من البلدان العربية والإسلامية، وعادت المحاكم العسكرية تلقي بالأحكام جُزافًا، وأحيانًا لا تكون المدّة بين المحاكمة وتنفيذ حكم الإعدام إلا دقائق معدودات.

بعض هؤلاء الشباب الذين خرجوا من سجونٍ أشدّ هولاً من سجون الباستيل الفرنسية، ورأوا بأعينهم التنسيق التام بين شيوخ من الأزهر ورجال المخابرات، أفتوا بتكفير وردّة النظام وزبانيته سواء كانوا رجال أمن أو رجال دين، ثم راحوا ينشرون أفكارهم، وعلىٰ هذا الأساس قامت جماعات، وتحدّدت أفكار ومناهج وأصول ما أنزل الله بها من سلطان. ثم انتقلت هذه العدوىٰ من مصر إلىٰ البلاد العربية والإسلامية، وها قد مضىٰ علىٰ هذه الفتنة أكثر من أربعين عامًا، فالأنظمة تمارس التنكيل والتعذيب، ولا ترىٰ سبيلاً غير هذا السبيل... وشباب هذه الجماعات الذين قرؤوا فتاوىٰ شيوخ الظالمين، وسمعوا نفاق بعضهم في الفضائيات والندوات العامة فقدوا الثقة بجميع الشيوخ والدعاة إلا من كان علىٰ

شاكلتهم.

ولقد أصبحت مهمة المصلحين من العلماء والدعاة شاقةً وتكتنفها المصاعب والعقد من كلّ جهة: فالظالمون من السلاطين يشكّون بكل داعية، والغُلاة من الشباب يتهمون كلّ من لا يرىٰ رأيهم ولا يقول بقولهم.

ألا ليت الجميع يعلمون بأنّ الغلوّ يلد غلوًّا، وأنّ الظلم مرتعه وخيم.

فاعتبروا يا أولي الأبصار:

إن هذه الحياة الدنيا لا تساوي عند الله سبحانه وتعالىٰ جناح بعوضة، لأنها متاع زائل لا محالة مهما طال أجل المرء، وعلا شأنه، وكثر ماله، وعندما تبلغ الروح الحلقوم تتراءىٰ الأعمال أمام ناظري المتوفّىٰ فيتمنّىٰ أن يخرج من هذه الدنيا لا له ولا عليه. قال الله جلّ وعلا علىٰ لسان مؤمن آل فرعون الذي كان يعظ قومه ويحذّرهم من سوء العاقبة:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ [سورة غافر:٣٩].

إنّ هؤلاء العلماء المتأخرين الذين نعنيهم في هذا البحث يشرحون هذه الآية ومثيلاتها في دروسهم ومواعظهم وخطبهم شرحًا وافيًا، ويستخرجون منها العبر والعظات، ويستدلون بأمثلة من أحوال الأمم الغابرة، فكيف بالله لا يتعظون بما يقولون:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾ [سورة الصف:٢].

إن الصغير فيهم قد أصبح علىٰ مشارف الستين، ومن بلغ هذا السن فقد صار مثل الزرع في أوان حصاده، قال ابن المبارك:

يا طالب العلم بادر الورعا ... وهاجر النوم واهجر الشبعا

يا أيها الناس أنتم عشب ... يحصده الموت كلما طلعا

لا يحصد المرء عند فاقته ... إلا الذي في حياته زرعا (١)

ومن لم يتعظ وهو في الستين أو السبعين من عمره لا تنفعه المواعظ.. فهلّا سألوا أنفسهم

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: (١/ ١٩٣).

ماذا تنفعهم هذه المناصب الرفيعة والألقاب الفضفاضة يوم الحشر والندامة؟!

وهلّا فكّروا بأمر هذه الملايين التي جمعوها. هل جاءت عن طريق مشروع؟! وهل سينفقها ورثتهم من بعدهم بطرق مشروعة لاسيما وأنّ الله تعالىٰ قد ابتلىٰ كثيرًا من العلماء بأبنائهم؟!

وهلّا حاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا علىٰ فتاويهم التي أفتوا بها، والتي كانت تتعارض مع أقوال لهم قد سبقتها... وهل تتحمل أعناقهم إثم الخلائق التي قد ضلّت بسبب اقتدائها بهم وتقليدها لهم؟!

قال أحد الصالحين:

(وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قبره بعد طول الأنس منك به! ولرأيت بيتًا تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان مع تغيّر الريح وبلىٰ الأكفان).

تحدّث ابن كثير رحمه الله عن علماء عصره حديث العالِم الربانيّ العارف، فقال عن أهل الصلاح والورع والتقوىٰ منهم:

- أحداث سنة ثمان عشرة وسبعمائة: وممن تُوفيّ فيها من الأعيان بقية السلف وقدوة الخلف أبو عبد الله محمد بن عمر البالسي.. ولم يكن للشيخ محمد مرتّب علىٰ الدولة ولا غيرهم، ولا لزاويته مرتّب ولا وقف، وقد عُرض عليه ذلك غير مرّة فلم يقبل.

- أحداث سنة تسع عشرة وسبعمائة: وممن تُوفيّ فيها من الأعيان الشيخ الإمام تاج الدين عبد الرحمن التبريزي الشافعي المعروف بالأفضلي، وكان ينكر علىٰ رشيد الدولة

ويحط عليه... وكان رشيد الدولة يريد أن يترضّاه، فلم يقبل، وكان لا يقبل من أحد شيئًا.

بل كان ابن كثير يُعدّ قبول الولايات في أنظمة ظالمة من الدنس الذي ينبغي أن يحذره العلماء الصالحون منه وينأوا بأنفسهم وأموالهم عنه، قال رحمه الله:

- أحداث سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة: وممن تُوفيّ فيها من الأعيان شمس الدين أبو نصر الشيرازي، وكان شيخًا حسنًا خيّرًا مباركًا متواضعًا، ولم يتدنّس بشيء من الولايات، ولا تدنّس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات، إلىٰ أن تُوفيّ في يوم عرفة ببستانه في المزة، وصُلي عليه بجامعها ودُفن بتربتها رحمه الله.

- أحداث سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة: وممن تُوفيّ فيها من الأعيان قاضي القضاة نجم الدين بن صصرىٰ، ومع القضاء أضيفت إليه مشيخة الشيوخ مع تدريس العادلية والغزالية والأتابكية، وكلها مناصب دنيوية انسلخ منها وانسلخت منه، ومضىٰ عنها وتركها لغيره، وأكبر أمنيته بعد وفاته أنه لم يكن تولاها، وهي متاع قليل من حبيب مفارق، وقد كان رئيسًا محتشمًا وقورًا كريمًا جميل الأخلاق.(١)

ومن عدل وإنصاف ابن كثير أنه ذكر الصفات الحسنة التي كان يمتاز بها قاضي القضاة نجم الدين بن صصرىٰ مع الإشارة إلىٰ الوظائف الرفيعة التي انسلخ منها وانسلخت منه. ومع أنه كان ينقد الذين تولّوا هذه الوظائف بشكل عام فقد كان يتجنّب التصريح ويكتفي بالتلميح، اللهمّ إلا إذا كان المتوفىٰ الذي يؤرخ له مبتدعًا نشيطًا في الدعوة لبدعته، مؤمنًا بوجوب نشرها والذود عنها، أو منافقًا زنديقًا.

---

(١) فليراجع من شاء البداية والنهاية، الجزء الرابع عشر، ومما يقتضي التنبيه في هذا المقام أنّ عصر ابن كثير غير عصرنا، ولا يستوي في التشبيه سلطان ظالم ولكنه يُحكّم شرع الله، وآخر اتخذ من نفسه ندًّا لله.

إن هذا الذي قاله ابن كثير ومن سبقه أو تلاه من علماء السلف مؤيَّد بقوله تعالت أسماؤه وصفاته: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة القصص:٨٣]. ومؤيَّد بقوله ﷺ: « **ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه**».[١]

ويقول وهب بن منبه في شرح هذا الحديث: (إن جمع المال وغشيان السلطان لا يبقيان من حسنات المرء إلا كما يبقىٰ ذئبان جائعان ضاريان سقطا في حظار فيه غنم فباتا يجوسان حتىٰ أصبحا)[٢].

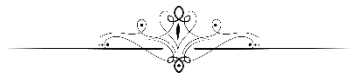

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه وغيرهم.

(٢) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ١٦٧).

الفصل الرابع:
عندما يكون الحكم لغير شرع اللّه

- المبحث الأول: واقعنا المعاصر.
- المبحث الثاني: فتاوى العلماء المعاصرين.
- المبحث الثالث: كلمتي الأخيرة.

واقعنا المعاصر

نعود إلىٰ الحديث الذي رواه عبادة بن الصامت: «... **وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا**» والأحاديث الأخرىٰ التي ذكرناها في بداية كتابنا هذا، فمن هذا الحاكم الذي يجب علينا طاعته ومناصرته؟ وهل الأمر بطاعته علىٰ إطلاقه؟!

لا، ليس الأمر علىٰ إطلاقه، فعلماء الأمة اشترطوا شروطًا في الحاكم الذي تجب طاعته، ومن أهم هذه الشروط:

١- أن يكون ذكرًا، وأجمعوا علىٰ أنّ المرأة لا يجوز أن تكون إمامًا.

٢- أن يكون بالغـًا عاقلاً، ولا خلاف في ذلك، ولا تنعقد إمامة ذاهب العقل بجنون أو غيره، كما لا تنعقد إمامة الصبي.

٣- الحرية: فلا إمامة لرقيق لأنّ أموره تصدر عن رأي غيره.

٤- أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيًا من قضاة المسلمين مجتهدًا لا يحتاج إلىٰ غيره في الاستفتاء في الحوادث، وهذا متفق عليه.

٥- الإسلام: فلا تنعقد إمامة الكافر علىٰ أي أنواع الكفر -أصليًّا كان أم مرتدًّا-، لأنّ المقصود من الإمام مراعاة أمور المسلمين والقيام بنصرة الدين، ومن لا يكون مسلمـًا لا يراعي مصلحة الإسلام والمسلمين.

وإذا توافرت هذه الشروط الآنفة الذكر في الحاكم، أصبح ملزمًا بما يلي:

١- حفظ الدين علىٰ أصوله المستقرّة وما أجمع عليه سلف الأمة.

٢- حماية بيضة الإسلام والذّب عن الحوزة ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا في الأسفار آمنين.

٣- إقامة الحدود لتُصان محارم الله تعالىٰ عن الانتهاك.

٤- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، حتىٰ تظهر النصفة، فلا يتعدّىٰ ظالم ولا يضعف مظلوم.

٥- تحصين الثغور بالعُدّة المانعة والقوة الدافعة.

٦- جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتىٰ يسلم أو يدخل في الذمّة.

٧- جباية الفيء والصدقات علىٰ ما أوجبه الشرع نصًّا واجتهادًا من غير عسف.

٨- تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه.

٩- اختيار الأمناء والأكفاء وتقليد الولايات للثقات النصحاء لتنضبط الأعمال وتحفظ الأموال.

١٠- مشارفة الأمور العامّة بنفسه، غير معتمد علىٰ ولاته وعماله.

إن صلاحية الحاكم للمنصب الذي أُسند إليه مرتبطة بتنفيذه للشروط والالتزامات التي تضمنها عقد البيعة، ونصه كما يلي:

(بايعناك علىٰ بيعة رضىٰ، علىٰ إقامة العدل والإنصاف، والقيام بفروض الإمامة).

فإذا أخلّ بفروض الإمامة عن عمد وإصرار منه أو أصبح غير قادر وجب علىٰ المسلمين خلعه، والخلع أنواع نذكر منها ما يلي:

١- أن يخلع الإمام نفسه من الخلافة لعجز من القيام بأمور الناس، من هِرَم أو مرض

ونحوهما.

٢- زوال العقل، فينعزل بالجنون المطبق، وهو الدائم الذي لا ينفك.

٣- ذهاب الحواس المؤثّرة في الرأي أو العمل، كالعمىٰ، والخرس، والصمم.

٤- بطلان تصرّف الإمام للاستيلاء عليه وحجره، ويدخل تحت ذلك صور:

منها: أن يأسر الكفار الإمام ويقع اليأس من خلاصه من أيديهم.

ومنها: أن يأسره أهل البغي، أو تكون الإمامة قد ثبتّت له بالقهر والاستيلاء فيجيء آخر ويقهره ويستولي علىٰ الأمر، فينعزل الأول ويصير الإمام هو الثاني.

٥- لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداءً، فإن أحدث جورًا بعد أن كان عدلاً اختلف علماؤنا في مسألة الخروج عليه.

٦- انعقد إجماع الأمة علىٰ أنه لا تصح ولاية الكافر علىٰ المسلمين، وإذا طرأ عليه كفر أو تغيير للشرع سقطت ولايته، ووجب علىٰ المسلمين القيام عليه وخلعه).[1]

إنني أعلم أنني عندما نقلت من كتب التراث هذه الفقرات عن فرائض الإمامة وغيرها لم أقدّم لطلاب العلم جديدًا، ولكنني أردت تذكيرهم جديدًا بأن الذين يطرحون هذه المسألة الخطيرة للبحث ليسوا هواة سياسة، ولا يتطلّعون من وراء ذلك إلىٰ أطماع ومصالح دنيوية كما يقول عنهم خصومهم، وإنما يتعبّدون ربهم في أمر ديني قبل أن يكون دنيويًّا، وكل شرط أو فرض من فروض الإمامة عليه أدلة من كتاب الله جلّ وعلا، ومن

(١) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي، والأحكام السلطانية للماوردي، والأحكام السلطانية لأبي يعلىٰ محمد بن الحسين الفراء، والقرطبي في تفسيره لقوله تعالىٰ: (ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ).

سُنة رسوله ﷺ، ثم من أقوال أئمة الإسلام، بل ومن إجماعهم في كثير من ذلك.

وقصارىٰ القول: فإنّ طريقة اختيار الحكام اليوم تختلف اختلافًا كليًّا عنها بالأمس يوم كان الحكم بشريعة الله، فليس هناك شيء اسمه أهل الحلّ والعقد، ومن ثَمّ فليس هناك أية حاجة لبحث الشروط التي يجب أن تتوفر في أهل الحلّ والعقد، ولا لبحث شيء اسمه البيعة لأن القوة هي التي جاءت بالحاكم المتسلّط، وهذه القوة غير مقيّدة: بحفظ الدين، وحماية بيضة الإسلام، وإقامة الحدود، وتنفيذ الأحكام، وتحصين الثغور، وجهاد من عاند الإسلام، وجباية الفيء والصدقات علىٰ ما أوجبه الشرع، أجل لا يُلزمه أحد بذلك ولا بغيره، وهو لم يتعهد بتطبيق شرع الله عند توليه الحكم، وهذه المسألة غير قابلة للبحث.

وفي غياب أهل الحلّ والعقد، ومشاركتهم الفعّالة في شؤون الحكم، وفي اختيار الحاكم وخلعه إذا أخلّ بفروض الإمامة، ويبرز استبداد الحاكم وبطشه وطغيانه، ويصبح الحديث عن خلعه لنفسه نوعًا من افتراض المستحيل.

ولنفترض أنه أُصيب بالجنون المطبق، فمن يقنعه بذلك؟ إنّ معظم المجانين يرمون الناس جديدًا بهذا المرض في حين يعتقدون بأنهم أسوياء أصحّاء، والحاشية سوف تزعم أن عبقرية الزعيم تفتّقت عن إشراقات جديدة لم يستطع الشعب استيعابها لفرط جهله وغبائه وتخلّفه، بل ومن المؤسف أن الجنون قد أصبح عند بعضهم وكأنه لازم من لوازم الحكم.

أما إذا أصبح الحاكم غير قادر علىٰ القيام بأعباء الحكم بسبب مرض مزمن أو غيره، فتراه يكلّف بعض أقربائه -أو أعوانه من غير أقربائه-، ويعبث هؤلاء بشؤون الحكم كما

يشاؤون، ثم تصدر جميع هذه الإجراءات باسم الزعيم الذي لا حول له ولا قوة، ومثله بين أيديهم كسجين مرفَّه، ومن وسائل الترفيه -عفوًا التضليل- عرض صورته عن بعد وهو يرأس اجتماعًا من الاجتماعات الرسمية المعهودة حتىٰ يعلم الناس أنه لا يزال حيًّا يُرزق.

إن الطريقة الوحيدة لعزل الحاكم اليوم هي [**الانقلاب**] سواء قام به الجيش أو بعض أفراد الأسرة الحاكمة كإخوان الزعيم أو أبنائه، وفي الحالين لا بد أن يتزعّم الانقلاب ناس من بطانة الحاكم الذين كانوا من قبل قيامهم بهذه الحركة موضع ثقته وأمناء سرّه، وجدير بالذكر أن هذه الانقلابات أصبحت نادرةً في العقود القليلة الماضية بسبب زيادة أنشطة أجهزة المخابرات، وأَخْذ الناس بالشك وغير ذلك من أسباب لا أحسبها خافيةً علىٰ الذين يرصدون هذه الظاهرة.

إن الأنظمة المعاصرة في ديار المسلمين علمانية في دساتيرها وقوانينها ومراسيمها الإدارية وسائر شؤون الحكم فيها، وسدنتها لا ينكرون ذلك في تصريحاتهم ومواقفهم التي لا تنقطع كقولهم: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، ومنعهم منح ترخيص للأحزاب علىٰ أساس ديني وغير ذلك.

فإذا قيل: هذه المساجد المزدحمة بالمصلّين تشهد علىٰ بطلان قولكم.

قلنا: بل قولكم هذا فيه جهل عظيم لأنّ العلمانية تعني: [**لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين**]، والشطر الثاني من هذه المقولة يعني أنه لا يحق لأهل السياسة أن يتدخّلوا بشؤون المؤسسات الدينية، وللقائمين علىٰ هذه المؤسسات حق اختيار الخطباء والوعّاظ فيها، ووضع البرامج التعليمية، وإنشاء دور جديدة للعبادة عند الحاجة إليها،

وجمع التبرعات، ورعاية الأوقاف التي تحقّق لهذه المؤسسات كل تقدّم وازدهار.

ولو التزم الحكام في بلادنا بالنظام العلماني التزامًا صحيحًا لسلمت لنا أوقافنا التي تُعدّ مفخرةً من مفاخر تاريخنا الإسلامي... ومن ريع هذه الأوقاف كانت: تُبنىٰ البيوت للفقراء الذين لا يجدون ما يشترون أو يستأجرون، وُتحفر الآبار، وتُبنىٰ المدارس والمستشفيات والمكتبات، وتُنسخ الكتب، وغير ذلك من الأعمال الخيرية التي يستفيد الناس منها.

وهذه الأوقاف التي لا تكاد تخلو منها مدينة ولا حيّ أو قرية، اغتصبها -ظلمًا وعدوانًا- الحكام العلمانيون في بلادنا خلال العقود الخمسة الماضية، وحرموا المستفيدين منها، ثم زعموا أنهم فعلوا هذا وغيره إنصافًا للفقراء والمحتاجين، ولا أدري كيف يُنصفون هذا الفقير وهم الذين يمنعون عنه الطعام الذي كان يقدّم له، والمأوىٰ الذي كان يأوي إليه، والمدرسة التي كان يتعلم فيها؟!

ولو التزم الحكام في بلادنا بالنظام العلماني التزامًا صحيحًا لكنّا أحرارًا في مساجدنا ندعو فيها إلىٰ الله علىٰ بصيرة، ولا نسمح لظالم جاهل أن يفرض علينا برامج ما أنزل الله بها من سلطان، وخطباء لا يتقن كثير منهم إلا فنون النفاق والمداهنة والتجسّس.

لكن معظم الحكام في بلادنا طبّقوا العلمانية تطبيقًا مشوهًا ومخالفًا لما هو عليه الحال في الدول الأوروبية وبشكل خاص في الشطر الثاني من المقولة الآنفة الذكر: [**لا سياسة في الدين**] فأدخلوا سياستهم الخبيثة إلىٰ مساجدنا ومعاهدنا الشرعيّة، واستأثروا بكل شيء، ومنعونا من ممارسة أبسط الحقوق التي يتمتّع بها المواطن في الدول الملتزمة بالنظام العلماني.

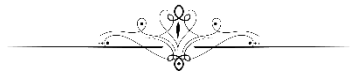

فتاوى العلماء المعاصرين

لما كانت مسألة الحكم بغير ما أنزل الله سبحانه وتعالىٰ من أخطر نوازل هذا العصر فقد تصدّىٰ لها علماء الأمة الذين لا يخلو من أمثالهم أي عصر من العصور، فقالوا كلمة الحق التي لا مراء فيها محتسبين أجرهم عند الله تعالىٰ يوم لا ينفع مال ولا بنون، وفيما يلي فتاوىٰ أشهر هؤلاء العلماء:

الإمام المجدّد محمد بن عبد الوهاب:

قال رحمه الله:[1] (اعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرةً، وذكر منها:

الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أنّ حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضّلون حكم الطاغوت علىٰ حكمه فهو كافر.

الخامس: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر إجماعًا، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾ [سورة محمد:٩]).

وقال رحمه الله:

(والطاغوت؛ عام في كل ما عُبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت. والطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة:

الأول: الشيطان الداعي إلىٰ عبادة غير الله، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود، القسم الخامس، الرسائل الشخصية، ص٢١٢.

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة يس:٥٩-٦٠]. [يس:٦٠].

الثاني: الحاكم الجائر المغيّر لأحكام الله، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [سورة النساء:٦٠].

الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المائدة:٤٤]).

وقال في مطلع هذه الرسالة [**رسالة في معنىٰ الطاغوت**]:

(اعلم رحمك الله تعالىٰ أنه أول ما فرض الله علىٰ ابن آدم الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [سورة النحل:٣٦]. فأما صفة الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها وتبغضها وتكفّر أهلها وتعاديهم. وأما معنىٰ الإيمان بالله: أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم).[1]

الإمام الآلوسي: هو شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي

(١) الجامع الفريد، الرسالة السابعة، معنىٰ الطاغوت ورؤوس أنواعه.

وُلد في الكرخ ببغداد سنة ١٢١٧ه الموافق ١٨٠٢م وكان رحمه الله شيخ العلماء في العراق، ومن أهم آثاره العلمية: [**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**].

قال رحمه الله في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المائدة:٤٤]:

(...وأجيب بأن الآية متروكة الظاهر، فإن الحكم وإن كان شاملاً لفعل القلب والجوارح لكن المراد به هنا عمل القلب وهو التصديق، ولا نزاع في كفر من لم يصدّق بما أنزل الله تعالىٰ، وأيضًا إن المراد عموم النفي بحمل ما علىٰ الجنس، ولا شك أن من لم يحكم بشيء مما أنزل الله تعالىٰ لا يكون إلا غير مصدّق ولا نزاع في كفره).

وفي تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة النساء:٦٥]، قال: (أي ينقادوا لأمرك ويذعنوا له بظاهرهم وباطنهم كما يُشعر به التأكيد، ولعل حكم هذه الآية باقٍ إلىٰ يوم القيامة، وليس مخصوصًا بالذين كانوا في عصر النبي ﷺ، فإن قضاء شريعته عليه الصلاة والسلام قضاؤه، فقد روي عن الصادق رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال: لو أن قومًا عبدوا الله تعالىٰ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاموا رمضان وحجوا البيت، ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله ﷺ ألا صنع خلاف ما صنع، أو وجدوا في أنفسهم حرجًا لكانوا مشركين ثمّ تلا هذه الآية).[1]

(١) انظر تفسيره لهذه الآيات في [روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني].

العلامة جمال الدين القاسمي:
[١٢٨٣-١٣٣٢هـ /١٨٦٦-١٩١٤م]

هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق. قال الشيخ محمد رشيد رضا في ذكر أهم صفاته: (هو علّامة الشام، ونادرة الأيام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السُّنة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف، والارتقاء المدنيّ الذي يقتضيه الزمن). [مجلد المنار:١٧/ ٥٥٨].

قال القاسمي -رحمه الله- في تفسيره لقوله تعالىٰ:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ [سورة المجادلة:٥].

(ففيها وعيد عظيم للملوك، وأمراء السوء الذين وضعوا أمورًا خلاف ما حدّه الشرع، وسموها قانونًا. وقد صنف العارف بالله تعالىٰ الشيخ بهاء الدين، قدّس الله روحه، رسالةً في كفر من يقول: يُعمل بالقانون والشرع، إذا قابل بينهما، وقد قال الله تعالىٰ:﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [سورة المائدة:٣]. وقد وصل الدين إلىٰ مرتبة من الكمال لا تقبل التكميل، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.[1]

ولا يخفىٰ أنّ إطلاق الكفر لمجرد ذلك من غير تفصيل، فيه نظر. لأن من تنطُّع الغالين من الفقهاء، الذين زيّف أقوالهم في التكفير كثير من العلماء النحارير، فإنّ التكفير ليس بالأمر اليسير، والحق في ذلك أن القانون الذي يهدم نصوص الشرع التي لا تحتمل التأويل ويبطلها وينسخها، فإنه كفر وضلال، لا يقول به، ولا يعوّل عليه، إلا المارقون

(١) هو نهر معروف بالبصرة، فمه عند نهر الإجانة.

الجاحدون، وأما غير المنصوص عليه، أعني ما لم يكن قاطعًا في بابه، من آية محكمة، أو خبر متواتر، أو إجماع من الفروع النظرية والمسائل الاجتهادية المدوّنة، فمخالفتها إلىٰ قانون عادل لا يعدّ ضلالاً ولا كفرًا، لأنه ليس من مخالفة الشرع في شيء، إذًا الشرع ما شرَّعه الله ورسوله، وأحكم الأمر فيه، وبُيّن بيانًا رفع كل لبس، لا ما تخالف فيه الفقهاء، وكان مأخذه من الاجتهاد).[1]

العلاّمة محمد رشيد رضا:

[١٨٦٥-١٩٣٥م]

صاحب مجلة المنار، ومن أبرز رجال الإصلاح في العصر الحديث، وكان مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، وأنشأ مدرسة **[الدعوة والإرشاد]** وممن درّس فيها الزعيم الفلسطيني الحاج محمد أمين الحسيني وفي عام ١٩٢٠، انتخب رشيد رضا رئيسًا للمؤتمر السوري.

قال رحمه الله في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المائدة:٤٤] :

(وقد استحدث كثير من المسلمين من الشرائع والأحكام نحو ما استحدث الذين من قبلهم، وتركوا بالحكم بها بعض ما أنزل الله عليهم. فالذين يتركون ما أنزل الله في كتابه من الأحكام من غير تأويل يعتقدون صحته فإنه يصدق عليهم ما قاله الله تعالىٰ في الآيات الثلاث أو في بعضها، كل بحسب حاله، فمن أعرض عن الحكم بحدّ السرقة أو القذف

(١) محاسن التأويل، للقاسمي.

أو الزنا غير مذعن له لاستقباحه إياه وتفضيل غيره من أوضاع البشر عليه فهو كافر قطعًا).

وقال أيضًا: (ولا مانع يمنع من إرادة الكفر الأكبر في الأولىٰ -وكذا الأخريان- إذا كان الإعراض عن الحكم بما أنزل الله ناشئًا عن استقباحه وعدم الإذعان له وتفضيل غيره عليه، وهذا هو المتبادر من السياق في الأولىٰ بمعونة سبب النزول كما رأيت في تصويرنا للمعنىٰ.

وإذا تأمّلت الآيات أدنىٰ تأمل تظهر لك نكتة التعبير بوصف الكفر في الأولىٰ وبوصف الظلم في الثانية وبوصف الفسوق في الثالثة، فالألفاظ وردت بمعانيها في أصل اللغة موافقة لاصطلاح العلماء. ففي الآية الأولىٰ كان الكلام في التشريع وإنزال الكتاب مشتملاً علىٰ الهدىٰ والنور والتزام الأنبياء وحكماء العلماء العمل والحكم به والوصية بحفظه. وختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له، رغبةً عن هدايته ونوره، مؤْثرًا لغيره عليه، فهو الكافر به. وهذا واضح لا يدخل فيه من لم يتفق له الحكم به أو من ترك الحكم به عن جهالة ثم تاب إلىٰ الله وهذا هو العاصي بترك الحكم الذي يتحامىٰ أهل السُّنة القول بتكفيره، والسياق يدل علىٰ ما ذكرنا من التعليل.

وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها في أصل الكتاب الذي هو ركن الإيمان وترجمان الدين، بل في عقاب المعتدين علىٰ الأنفس أو الأعضاء بالعدل والمساواة، فمن لم يحكم بذلك فهو الظالم في حكمه كما هو ظاهر. وأما الآية الثالثة فهي في بيان هداية الإنجيل وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب في إقامة الشريعة علىٰ الوجه الذي يطابق مراد الشارع وحكمته لا بحسب ظواهر الألفاظ فقط، فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا بها فهم الفاسقون بالمعصية، والخروج من محيط تأديب الشريعة).

العلاّمة محمد حامد الفقي

[١٣١٠-١٣٧٨هـ /١٨٩٢-١٩٥٩م]

من كبار علماء الأزهر، أنشأ جماعة أنصار السُّنة المحمدية عام ١٩٢٦ وكان أول رئيس لها ثم أنشأ مجلة الهدي النبوي، وصدر عددها الأول عام ١٩٣٧، وكان من كتّابها الشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ محب الدين الخطيب، والشيخ عبد الرحمن الوكيل، والشيخ محمود شلتوت.

وقال الفقي في حاشية له علىٰ كتاب [**فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**] لمؤلفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الإمام محمد بن عبد الوهاب:

(الذي يُستخلص من كلام السلف: أن الطاغوت كل ما صرف العبد وصدّه عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله، سواء في ذلك الشيطان من الجن والشياطين من الإنس والأشجار والأحجار وغيرها، ويدخل في ذلك بلا شك: الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به في الدماء والفروج والأموال، وليبطل بها شرائع الله، من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحلّلها وتحميها بنفوذها ومنفّذيها، والقوانين نفسها طواغيت، وواضعوها ومروّجوها طواغيت. وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ إما قصدًا أو عن غير قصد من واضعه. فهو طاغوت).

العلاّمة محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ التميمي:

[١٣١١-١٣٨٩هـ]

كان مفتيًا للديار السعودية، وافتتح دار الإفتاء عام ١٣٧٤ه، كما افتتح مؤسسات مهمّةً لأول مرّة في تاريخ الدولة السعودية:

منها: رئاسة القضاء عام ١٣٧٦ه.

ومنها: الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

ومنها: رئاسة تعليم البنات، التي لم يكن لها مثيل في العالم الإسلامي.

ومنها: رابطة العالم الإسلامي.

ومنها: هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا الذي ذكرناه ليس علىٰ سبيل الحصر، ومما ينبغي التأكيد عليه أن الشيخ كان شريكًا في الحكم وصاحب قرار، ولم يكن موظّفًا، فهو بهذا الشكل نموذج فريد في العالم الإسلامي.

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية:

(إنّ من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الروح الأمين، علىٰ قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، في الحكم به بين العالمين، والردّ إليه عند تنازع المتنازعين مناقضة ومعاندة لقول الله عز وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء:٥٩]. وقد نفىٰ الله سبحانه وتعالىٰ الإيمان عن من لم يُحكّموا النبيّ ﷺ فيما شجر بينهم نفيًا مؤكّدًا بتكرار أداة النفي وبالقسم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

﴿بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة النساء:٦٥] [النساء]).

وأضاف: (أن من أعظم أنواع الكفر الأكبر في هذا الباب هو ما وقع فيه المرتدّون المعاصرون، فقال: الخامس (من نواقض الإيمان): وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندةً للشرع ومكابرة لأحكامه ومشاقةً لله ولرسوله، ومضاهاةً بالمحاكم الشرعية إعدادًا وإمدادًا وإرصادًا وتأصيلاً وتفريعًا وتشكيلاً وتنويعًا وحكمًا وإلزامًا ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستندات مرجعها كلها إلىٰ كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ فلهذه المحاكم مراجع هي: القانون الملفّق وشرائع شتّىٰ، وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلىٰ الشريعة وغير ذلك... فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيّأة مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السُّنة والكتاب من أحكام ذلك القانون وتلزمهم وتقرّهم عليه، وتحتّمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأيّ مناقضة للشهادة بأن محمدًا رسول الله بعد هذه المناقضة؟).[1]

العلاّمة أحمد محمد شاكر:

[١٨٩٢-١٩٥٨م]

نشأ في بيئة علمية، فوالده الشيخ محمد شاكر كان وكيلاً للأزهر ومن كبار علمائه.

---

(١) رسالة تحكيم القوانين.

حصل الشيخ أحمد شاكر علىٰ شهادة العالمية في الأزهر عام ١٩١٧م، وعمل في بعض الوظائف القضائية منذ حصوله علىٰ شهادة العالمية، ثم أصبح قاضيًا، فرئيسًا للمحكمة الشرعية. وهذه الأعمال خلال حوالي أربعين عامًا مكّنته من معرفة القوانين الوضعية معرفةً تميّزه عن أكثر علماء عصره، إن لم نقل عنهم جديدًا، فهو إذًا: يتحدّث عن معرفة تامّة وإحاطة لا يعتريها جهل أو غموض.

ومن أهم آثار المترجم له [**شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل**] و [**عمدة التفسير في اختصار تفسير ابن كثير**]، وكتيبات في قانون الأحوال الشخصية ونحو ذلك.

قال الشيخ رحمه الله في تعقيب له علىٰ تفسير ابن كثير لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [سورة المائدة:٥٠] : (أفيجوز في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربة الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة يغيّرونه ويبدّلونه كما يشاؤون، ولا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟

أفيجوز إذًا لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد (التشريع الجديد)؟ أو يجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعلّمه واعتقاده والعمل به عالمًا كان الأب أو جاهلاً؟ أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا [**الياسق العصري**] وأن يعمل به ويعرض عن الشريعة البيّنة؟ ما أظن أن رجلاً مسلمًا يعرف دينه ويؤمن به جملةً وتفصيلاً ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله علىٰ رسوله كتابًا محكمًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبة قطعية الوجوب في كل حال- ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردّد ولا متأوّل بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلة.

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس: كفر بواح لا خفاء فيه ولا

مداورة، ولا عذر لمن ينتسب للإسلام كائنًا من كان في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ نفسه).[١]

وقال رحمه الله تعالىٰ في موضع آخر من عمدة التفسير:

(هذه القوانين التي فرضها علىٰ المسلمين أعداء الإسلام السافر والعداوة هي في حقيقتها دين آخر جعلوه دينًا للمسلمين بدلاً من دينهم النقي السامي، لأنهم أوجبوا عليهم طاعتها، وغرسوا في قلوبهم حبّها وتقديسها والعصبية لها، حتىٰ لقد تجري علىٰ الألسنة والأقلام كثيرًا كلمات: تقديس القانون، قدسية القضاء، حرم المحكمة، وأمثال ذلك من الكلمات التي يأبون أن توصف بها الشريعة الإسلامية وآراء الفقهاء الإسلاميين. بل هم حينئذ يصفونها بكلمات الرجعية، الجمود، الكهنوت، شريعة الغاب).[٢]

العلاّمة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي:

[١٣٢٥-١٣٩٣هـ/ ١٩٠٧-١٩٧٣م]

مفسّر، فقيه، أصوليّ، ضليع في علوم العربية من نحو وبلاغة وشعر وأدب يقول تلميذه الشيخ عطية محمد سالم القاضي بالمحكمة الشرعيّة بالمدينة في ترجمته له: (درستُ [والكلام من الشيخ لتلميذه] دراسةً واسعًة في الأدب علىٰ زوجة خالي أم ولد الخال أي أن ولد خاله يعلمه العلوم الخاصة بالقرآن وأمه تعلمه الأدب، قال: أخذت عنها مبادئ النحو كالآجرومية وتمرينات ودروس واسعة في أنساب العرب وأيامهم والسيرة

(١) أحمد محمد شاكر: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.

(٢) عمدة التفسير [٣/ ٢١٤].

النبوية... فبيت أخواله كان مدرسته الأولىٰ في صغره، ثم انتقل إلىٰ المدرسة الثانية، فدرس مختلف أنواع العلوم علىٰ صفوة من كبار علماء موريتانيا، ولم يقتصر في تحصيله علىٰ دراسته بل كان دائمًا يديم النظر ويواصل التحصيل حتىٰ غدا في كل منه كأنه متخصص فيه، بل وله في كل منه اجتهادات ومباحث مبتكرة، ولهذا فقد اشتهر في بلده بالقضاء والفراسة، وكان المواطنون عظيمي الثقة به يفدون إليه من كلّ جهة ليقضي بينهم، وكان المشايخ والحكام يصدّقون علىٰ فتواه.

وفي عام ١٣٦٧هـ حجّ إلىٰ بيت الله الحرام، ثمّ استقر مدرّسًا في المدينة المنورة، ثم انتقل إلىٰ الرياض مدرّسًا في الكليات والمعاهد العلمية، فقرّبه الشيخ محمد بن إبراهيم وأنابه عنه في بعض دروسه بمسجده.

وفي عام ١٣٨١هـ انتقل إلىٰ المدينة المنورة ليصبح من أشهر أساتذة الجامعة الإسلامية، وخلاصة القول فما من شيخ في مثل سنّ محمد بن عثيمين وهيئة كبار العلماء إلا ويذكر فضل المترجم له عليه. ولهذا فقد توسّعتُ في نقل أهم ما قاله الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في سفره النفيس: [**أضواء البيان**] في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله لأنه جامع في بابه.

مسألة:

اعلم أنّ الله -جلّ وعلا- بيّن في آيات كثيرة، صفات من يستحق أن يكون الحكم له، فعلىٰ كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة، التي سنوضّحها الآن إن شاء الله، ويقابلها مع صفات البشر المشرِّعين للقوانين الوضعية، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع. سبحان الله وتعالىٰ عن ذلك.

فإن كانت تنطبق عليهم ولن تكون، فليتبع تشريعهم. وإن ظهر يقينًا أنهم أحقر وأخسّ وأذلّ وأصغر من ذلك، فليقف بهم عند حدّهم، ولا يجاوزه بهم إلىٰ مقام الربوبية، سبحانه وتعالىٰ أن يكون له شريك في عبادته، أو حكمه أو ملكه.

فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالىٰ صفات من له الحكم والتشريع قوله هنا: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الشورىٰ:١٠]، ثمّ قال مبيّنًا صفات من له الحكم ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

فهل في الكفرة الفجرة المشرِّعين للنُظُم الشيطانية، من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوّض إليه الأمور، ويُتوكّل عليه، وأنه فاطر السموات والأرض أي خالقهما ومخترعهما، علىٰ غير مثال سابق، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجًا، وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة في قوله تعالىٰ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة الأنعام:١٤٣] ... الآية، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورىٰ:١١]، وأن ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الشورىٰ:١٢]، وأنه هو الذي ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سورة الشورىٰ:١٢] أي يضيّقه علىٰ من يشاء ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الشورىٰ:١٢].

فعليكم أيها المسلمون أن تتفهّموا صفات من يستحق أن يُشرِّع ويحلّل ويحرّم، ولا تقبلوا تشريعًا من كافر خسيس حقير جاهل.

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء:٥٩]، فقوله فيها: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كقوله في هذه ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ﴾ [سورة الشورىٰ:١٠].

وقد عجب نبيه ﷺ بعد قوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من الذين يدّعون الإيمان مع أنهم يريدون المحاكمة، إلىٰ من لم يتصف بصفات من له الحكم، المعبّر عنه في الآية بالطاغوت، وكلّ تحاكم إلىٰ غير شرع الله فهو تحاكم إلىٰ الطاغوت، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾ [سورة النساء:٦٠].

فالكفر بالطاغوت، الذي صرّح بأنه أمرهم به في هذه الآية، شرط في الإيمان كما بيّنه تعالىٰ في قوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦].

فيُفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت لم يتمسّك بالعروة الوثقىٰ، ومن لم يستمسك بها فهو متردٍ مع الهالكين.

ومن الآيات الدالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ:﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾ [سورة الكهف:٢٦].

فهل في الكفرة الفجرة المشرِّعين من يستحق أن يوصف بأن له غيب السموات والأرض؟ وأن يبالغ في سمعه وبصره لإحاطة سمعه بكل المسموعات وبصره بكل المبصرات؟ وأنه ليس لأحد دونه من ولي؟ سبحانه وتعالىٰ عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ومن الآيات الدالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة القصص:٨٨].

فهل في الكفرة الفجرة المشرِّعين من يستحق أن يوصف بأنه الإله الواحد؟ وأن كل شيء هالك إلا وجهه؟ وأن الخلائق يرجعون إليه؟ تبارك ربنا وتعاظم وتقدس أن يوصف أخس خلقه بصفاته.

ومن الآيات الدالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سورة غافر:١٢]. فهل في الكفرة الفجرة المشرِّعين النُظُم الشيطانية، من يستحق أن يوصف في أعظم كتاب سماوي، بأنه العلي الكبير؟ سبحانك ربنا وتعاليت عن كل مالا يليق بكمالك وجلالك.

ومن الآيات الدالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة القصص:٧٠].

فهل في مشرّعي القوانين الوضعية، من يستحق أن يوصف بأن له الحمد في الأولىٰ والآخرة، وأنه هو الذي يصرّف الليل والنهار مبيّنًا بذلك كمال قدرته، وعظمة إنعامه علىٰ خلقه. سبحان خالق السماوات والأرض، جلّ وعلا أن يكون له شريك في حكمه أو عبادته، أو ملكه.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالىٰ:﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة يوسف:٤٠]، فهل في أولئك من يستحق أن يوصف بأنه هو الإله المعبود وحده، وأن عبادته وحده هي الدين القيم؟ سبحان الله وتعالىٰ عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة يوسف:٦٧]. فهل فيهم من يستحق أن يُتوكل عليه، وتُفوّض الأمور إليه؟

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة المائدة:٤٩].

فهل في أولئك المشرِّعين من يستحق أن يوصف بأن حكمه بما أنزل الله وأنه مخالف لاتباع الهوىٰ، وأن من تولىٰ عنه أصابه ببعض ذنوبه؟ لأن الذنوب لا يؤاخذ بجميعها إلا في الآخرة؟ وأنه لا حكم أحسن من حكمه لقوم يوقنون؟ سبحان ربنا وتعالىٰ عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الأنعام:٥٧] فهل فيهم من يستحق أن يوصف بأنه يقص الحق، وأنه خير الفاصلين؟

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة الأنعام:١١٤-١١٥].

فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي أنزل هذا الكتاب مفصّلاً الذي يشهد أهل الكتاب أنه منزّل من ربك بالحق، وبأنه تمّت كلماته صدقًا وعدلاً أي صدقًا في الإخبار، وعدلاً في الأحكام، وأنه لا مبدّل لكلماته وهو السميع العليم؟ سبحان ربنا ما أعظمه وما أجل شأنه.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة يونس:٥٩].

فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي ينزّل الرزق للخلائق، وأنه لا يمكن أن يكون تحليل ولا تحريم إلا بإذنه؟ لأنّ من الضروري أن من خلق الرزق وأنزله هو الذي له التصرّف فيه بالتحليل والتحريم؟ سبحانه جلّ وعلا أن يكون له شريك في التحليل والتحريم.

ومنها قوله تعالىٰ:﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المائدة:٤٤]. فهل فيهم من يستحق الوصف بذلك؟ سبحان ربنا وتعالىٰ عن ذلك.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة النحل:١١٦].

فقد أوضحت الآية أن المشرِّعين غير ما شرعه الله إنما تصف ألسنتهم الكذب، لأجل أن يفتروه علىٰ الله، وأنهم لا يفلحون وأنهم يمتّعون قليلاً ثم يعذّبون العذاب الأليم، وذلك واضح في بُعد صفاتهم من صفات من له أن يحللّ ويحرّم.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [سورة الأنعام:١٥٠] ... الآية. فقوله: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ صيغة تعجيز، فهم عاجزون عن بيان مستند التحريم.

وذلك واضح في أن غير الله لا يتصف بصفات التحليل ولا التحريم. ولما كان التشريع وجميع الأحكام، شرعيةً كانت أو كونيةً قدريةً، من خصائص الربوبية. كما دلّت عليه الآيات المذكورة كان كلّ من اتبّع تشريعًا غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرِّع ربًّا، وأشركه مع الله.

والآيات الدالة علىٰ هذا كثيرة، وقد قدّمناها مرارًا وسنعيد منها ما فيه كفاية، فمن ذلك وهو من أوضحه وأصرحه، أنه في زمن النبي ﷺ وقعت مناظرة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان في حكم من أحكام التحريم والتحليل، وحزب الرحمن يتّبعون تشريع الرحمن في وحيه في تحريمه، وحزب الشيطان يتّبعون وحي الشيطان في تحليله، وقد حكم الله بينهما وأفتىٰ فيما تنازعوا فيه فتوىٰ سماوية قرآنية تتلىٰ في سورة الأنعام.

وذلك أن الشيطان لما أوحىٰ إلىٰ أوليائه فقال لهم في وحيه: سلوا محمدًا عن الشاة تصبح ميتةً من هو الذي قتلها؟ فأجابوهم أنّ الله هو الذي قتلها. فقالوا: الميتة إذًا ذبيحة الله، وما ذبحه الله كيف تقولون إنه حرام؟ مع أنكم تقولون إنما ذبحتموه بأيديكم حلال،

فأنتم إذًا أحسن من الله وأحلّ ذبيحة.

فأنزل الله بإجماع من يعتد به من أهل العلم قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام:١٢١].

يعني الميتة أي وإن زعم الكفار أنّ الله ذكاها بيده الكريمة بسكين من ذهب: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ والضمير عائد إلىٰ الأكل المفهوم من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ وقوله: ﴿لَفِسْقٌ﴾ [سورة الأنعام:١٢١] أي خروج عن طاعة الله، واتّباع لتشريع الشيطان: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة الأنعام:١٢١].

أي بقولهم: ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذًا أحسن من الله تذكيةً، ثم بيّن الفتوىٰ السماوية من رب العالمين، في الحكم بين الفريقين في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة الأنعام:١٢١]، فهي فتوىٰ سماوية من الخالق -جلّ وعلا- صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله.

ومن الآيات الدالة علىٰ نحو ما دلت عليه آية الأنعام المذكورة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة النحل:١٠٠]، فصرّح بتوليهم الشيطان أي باتّباع ما يزيّن لهم من الكفر والمعاصي مخالفًا لما جاءت به الرسل، ثم صرّح بأن ذلك إشراك به في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة النحل:١٠٠]. وصرّح أنّ الطاعة في ذلك الذي يشرّعه الشيطان لهم ويزيّنه عبادة للشيطان.

ومعلوم أنّ من عبد الشيطان فقد أشرك بالرحمن قال تعالىٰ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ

﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة يس:٥٩-٦٠]. [يس: ٦٠-٦٢]، ويدخل فيهم متبعو نظام الشيطان دخولاً أوليًّا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة يس:٦٢] [يس: ٦٢].

ثمّ بيّن المصير الأخير لمن كان يعبد الشيطان في دار الدنيا، في قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة يس:٦٣-٦٥]. [يس:٦٣-٦٥] وقال تعالىٰ: عن نبيه إبراهيم ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [سورة مريم:٤٤] [مريم:٤٤] فقوله: لا تعبد الشيطان: أي باتّباع ما يشرّعه من الكفر والمعاصي، مخالفًا لما شرعه الله.

وقال تعالىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [سورة النساء:١١٧]. فقوله﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ يعني ما يعبدون إلا شيطانًا مريدًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة سبأ:٤٠-٤١].

فقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ﴾ أي يتّبعون الشياطين ويطيعونهم فيما يشرّعون ويزيّنون لهم، من الكفر والمعاصي علىٰ أصح التفسيرين.

والشيطان عالم بأن طاعتهم له المذكورة إشراك به كما صرّح بذلك وتبرّأ منهم في الآخرة، كما نصّ الله عليه في سورة إبراهيم في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ﴾ [سورة إبراهيم:٢٢] إلىٰ قوله: ﴿إِنِّى

﴿كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [سورة إبراهيم:٢٢] فقد اعترف بأنهم كانوا مشركين به من قبل أي في دار الدنيا، ولم يكفر بشركهم ذلك إلا في يوم القيامة.

وقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنىٰ الذي بيّنا في الحديث لما سأله عدي بن حاتم ﷺ عن قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [سورة التوبة:٣١] كيف اتخذوهم أربابًا؟ وأجابه ﷺ «**أنهم أحلوا لهم ما حرّم الله وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم، وبذلك الاتباع اتخذوهم أربابًا**».(١)

ومن أصرح الأدلة في هذا أن الكفار إذا أحلّوا شيئًا، يعلمون أن الله حرّمه وحرّموا شيئًا يعلمون أن الله أحلّه، فإنهم يزدادون كفرًا جديدًا بذلك، مع كفرهم الأول، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة التوبة:٣٧].

وعلىٰ كلّ حال فلا شك أن كل من أطاع غير الله، في تشريع مخالف لما شرعه الله، فقد أشرك به مع الله كما يدل لذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [سورة الأنعام:١٣٧] فسمّاهم شركاء لما أطاعوهم في قتل الأولاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [سورة الشورىٰ:٢١] فقد سمّىٰ تعالىٰ الذين يشرّعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء، ومما يزيد ذلك إيضاحًا، أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة، من أنه يقول للذين كانوا يشركون به في دار الدنيا، إني كفرت بما أشركتمون من قبل، أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه

(١) أخرجه عن عدي بن حاتم الترمذي في تفسير القرآن حديث (٣٠٩٥).

شيء زائد علىٰ أنه دعاهم إلىٰ طاعته فاستجابوا له كما صرح بذلك في قوله تعالىٰ عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [سورة إبراهيم:٢٢]... الآية، وهو واضح كما ترىٰ.

العلاّمة عبد العزيز بن باز:

[١٣٣٠-١٤٢٠هـ]

فقَد بصره عام ١٣٥٠ه، ولم يمنعه ذلك من طلب العلم، وقد حفظ القرآن الكريم قبل سن البلوغ، ثم جدّ في طلب العلم إلىٰ أن برز فيه، فعُيّن قاضيًا في الخرج عام ١٣٥٧ه، ومن آثاره حلقات العلم التي بدأت في الخرج واستمرت حتىٰ وفاته رحمه الله، وكان ينفق علىٰ الفقراء من الطلبة.

وفي عام ١٣٧٢هـ، انتقل مدرّسًا في المعهد العلمي ثم كلية الشريعة في الرياض، ثم نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية عند تأسيسها ١٣٨١هـ ثم أصبح رئيسًا لها... وتدرّج في هذه الأعمال إلىٰ أن جرىٰ تعينه مفتيًا عامًّا للديار السعودية، وهو المفتي الثاني بعد الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

أما آثاره العلمية فكثيرة: منها **مجموع فتاوىٰ ومقالات** متنوعة جمعت في [١٢] جزءًا، ومنها [**التحذير من البدع**]، ومنها [**وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه**]، ومنها [**العقيدة الصحيحة وما يضادها**]، ومنها [**وجوب العمل بسُنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها**]، ومنها [**حاشية مفيدة علىٰ فتح الباري**]، وصل فيها إلىٰ كتاب الحج، وغير ذلك من الكتب والرسائل كثير.

وخلاصة القول: فلقد كان الشيخ رحمه الله آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، ومن ذلك أنه كان يكتب لبعض الرؤساء العرب -ومن غير استئذان أحد- يحذّرهم من تجاوز حدود الله، واستهتارهم الصريح ببعض فروض الإسلام.

وكان كريمًا لا يدّخر شيئًا لغده، وعندما قصّرت الميزانية عن تفريغ الدعاة، كان لا يردّ أحدًا وينفق عليهم من ماله حتىٰ تراكمت عليه الديون، وفضلاً عن ذلك فقد كان سمحًا رحيمًا بالمخالف تتمثّل فيه أخلاق السلف رضي الله عنهم.

قال الشيخ رحمه الله:

(من اعتقد أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت علىٰ حكمه فهو كافر، ويدخل في ذلك كل من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير شريعة الله في المعاملات أو الحدود أو غيرهما وإن لم يعتقد أن ذلك أفضل من حكم الشريعة لأنه بذلك يكون قد استباح ما حرم الله إجماعًا وكل من استباح ما حرّم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة كالزنا والحكم بغير شريعة الله فهو كافر بإجماع المسلمين).[1]

مسألة:

إذا عُلم أن التحاكم إلىٰ شرع الله من مقتضىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله فإن التحاكم إلىٰ الطواغيت والرؤساء والعرّافين ونحوهم ينافي الإيمان بالله عز وجل وهو كفر وظلم وفسق يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المائدة:٤٤].

---

(١) نواقض الإسلام (مجلة التوعية) ص٣، ومحمد بن عبد الوهاب: نواقض الإسلام ص٤.

ويقول: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة المائدة:٤٥].

ويقول: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة المائدة:٤٧].

وبيّن تعالىٰ أن الحكم بغير ما أنزل الله حكم الجاهلين وأن الإعراض عن حكم الله تعالىٰ سبب لحلول عقابه وبأسه الذي لا يُردّ عن القوم الظالمين، يقول سبحانه:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة المائدة:٤٩-٥٠].

وإن القارئ لهذه الآية والمتدبر لها يتبين له أن الأمر بالتحاكم إلىٰ ما أنزل الله أكّد بمؤكّدات ثمانية:

الأول: الأمر به في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

الثاني: أن لا تكون أهواء الناس ورغباتهم مانعةً من الحكم به بأيّ حال من الأحوال وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

الثالث: التحذير من عدم تحكيم شرع الله في القليل والكثير والصغير والكبير، يقول سبحانه: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

الرابع: أن التولّي عن حكم الله وعدم قبول شيء منه ذنب عظيم موجب للعقاب الأليم قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

الخامس: التحذير من الاغترار بكثرة المعرضين عن حكم الله فإن الشكور من عباد الله قليل يقول تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

السادس: وصف الحكم بغير ما أنزل الله بأنه حكم الجاهلية،يقول سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

السابع: تقرير المعنىٰ العظيم بأن حكم الله أحسن الأحكام وأعدلها يقول عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾.

الثامن: أن مقتضىٰ اليقين هو العلم بأن حكم الله هو خير الأحكام وأكملها وأتمّها وأعدلها وأن الواجب الانقياد له مع الرضا والتسليم يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وهذه المعاني موجودة في آيات كثيرة من القرآن وتدل عليها أقوال الرسول ﷺ وأفعاله فمن ذلك قول الله سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة النور:٦٣]. وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة النساء:٦٥]... الآية. وقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف:٣]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب:٣٦].

وروي عن الرسول ﷺ أنه قال:«**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**»

قال النووي حديث صحيح رويناه في كتاب الحجّة بإسناد صحيح.

وقوله ﷺ لعدي بن حاتم «**أليس يحلّون ما حرّم الله فتحلّونه ويحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه قال: بلىٰ ، قال: فتلك عبادتهم**». وقال ابن عباس ﷺ لبعض من جادله في بعض المسائل «**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال: رسول الله وتقولون: قال: أبو بكر وعمر**».

ومعنىٰ هذا أن العبد يجب عليه الانقياد التام لقول الله تعالىٰ وقول رسوله وتقديمها علىٰ قول كل أحد وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة.(١)

العلاّمة عبد الله بن حميد:

[١٣٢٩-١٤٠٢هـ/ ١٩١١-١٩٨٢م]

هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن حميد، من كبار علماء الجزيرة العربية، تولّىٰ القضاء في الرياض ثم في سدير ثم في القصيم ثم جرىٰ تعيينه رئيسًا لرئاسة المسجد الحرام بمكة مع التدريس فيه، ثم كان رئيسًا لمجلس القضاء الأعلىٰ، ورئيسًا للمجلس الفقهي برابطة العالم الإسلامي، وله عدد من الكتب والرسائل.

منها: [**كمال الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه البشر**]، ومنها: [**توجيهات عامّة**]، ومنها: [**مجموعة فتاوىٰ**].

قال رحمه الله في رسالته: [**كمال الشريعة الإسلامية**]:

(وقد تكفّلت الشريعة بحل جميع المشاكل وتبيينها وإيضاحها. قال تعالىٰ: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ**

(١) وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه، ابن باز، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

﴿ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة النحل:٨٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النحل:٤٤].

فكيف يجترئ من يدّعي الإيمان مع هذا البيان الواضح علىٰ الرضىٰ بالتحاكم إلىٰ الطاغوت والإعراض عن شريعة الله؟ وقد نفىٰ الله تعالىٰ الإيمان عمن لم يحكّم الرسول فيما وقع بينهم من التشاجر. قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة النساء:٦٥].

وإنه لمن أعظم الضلال أن يعتقد من يدّعي الإسلام أن الشريعة لم تأت بما يكفل مصلحة الجميع، وأنّ الناس محتاجون إلىٰ غيرها في شيء من شؤونهم ومشاكل حياتهم، أليس ذلك طعنًا وتكذيبًا لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣][1].

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

والفتوىٰ التالية والتي تليها صادرة عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء المشكّلة من العلماء: عبد العزيز بن عبد الله بن باز وهو رئيسها، وعبد الرزاق عفيفي نائب الرئيس، وعبد الله بن غديان، وعبد الله بن قعود ولكل من هؤلاء العلماء قدم راسخة في العلم والإفتاء إذا كانوا فرادىٰ فكيف إذا كانوا مجتمعين لاسيما وأن الشيخ عبد الرزاق لا يقلّ علمًا ومكانةً عن ابن باز وابن حميد، وكان أستاذًا للعالِمَيْن عبد الله بن قعود، وعبد

(١) كمال الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه البشر انظر: [المجموعة العلمية السعودية].

الله بن غديان.

السؤال الثالث من الفتوىٰ رقم [٨٠٠٨]: (١)

س٣: ما معنىٰ الطاغوت عمومًا، مع الإشارة إلىٰ تفسير ابن كثير لآية النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [سورة النساء:٦٠].

المراد هنا توضيح أمرين:

الأول: ما معنىٰ الطاغوت عمومًا، وهل يدخل كما قال ابن كثير: طاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه دون الله، لكي نصل إلىٰ تكفير الحاكم والمتحاكمين إليه حال كونه لا يحكم بشرعه سبحانه.

الثاني: معنىٰ قوله: يريدون أن يتحاكموا، قال بعضهم: الإرادة هنا لا تحصل إلا بالباطن، ولا يعلم أحد به؛ لذا فلا يحكم بكفر المتحاكم إلا بتوافر شرط العلم بالإرادة الباطنية وهو غير حاصل، الإرادة محمولة علىٰ المعنىٰ الظاهرة الاستدلال بحديث الرسول ﷺ بالرضا والمتابعة. أي ذلك الصواب؟

ج٣: أولاً معنىٰ الطاغوت العام: هو كل ما عُبد من دون الله مطلقًا تقرّبًا إليه بصلاة أو صيام أو نذر أو ذبيحة أو لجوء إليه فيما هو من شأن الله لكشف ضرّ أو جلب نفع أو تحكيمًا له بدلاً من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ونحو ذلك.

والمراد بالطاغوت في الآية: كل ما عدل عن كتاب الله تعالىٰ وسُنة نبيه ﷺ إلىٰ

---

(١) من فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.(المجلد الأول).

التحاكم إليه من نظم وقوانين وضعية أو تقاليد وعادات متوارثة أو رؤساء قبائل ليفصل بينهم بذلك، أو بما يراه زعيم الجماعة أو الكاهن. ومن ذلك يتبيّن: أن النُظُم التي وُضعت ليتحاكم إليها مضاهاةً لتشريع الله داخلة في معنىٰ الطاغوت، لكن من عُبد من دون الله وهو غير راض بذلك كالأنبياء والصالحين لا يسمىٰ طاغوتًا، وإنما الطاغوت: الشيطان الذي دعاهم إلىٰ ذلك وزيّنه لهم من الجنّ والإنس.

ثانيًا: المراد بالإرادة في قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [سورة النساء:٦٠]، ما صحبه فعل أو قرائن وإمارات تدل علىٰ القصد والإرادة، بدليل ما جاء في الآية التي بعد هذه الآية﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [سورة النساء:٦١]، ويدل علىٰ ذلك أيضًا: سبب النزول الذي ذكره ابن كثير وغيره في تفسير هذه الآية، وكذلك المتابعة دليل الرضا، وبذلك يزول الإشكال القائل: إن الإرادة أمر باطن فلا يحكم علىٰ المريد إلا بعلمها منه وهو غير حاصل.

وبالله التوفيق. وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو عضو نائب رئيس اللجنة الرئيس

عبد الله بن قعود عبد الله بن غديان عبد الرزاق العفيفي عبد العزيز بن عبد الله بن باز

فتوىٰ رقم (٦٢١٦):

س: ما الحكم إذا تخاصم اثنان مثلاً وتحاكما إلىٰ الأحكام العرفية، فمثلاً يضع كل

منهما معدالاً كما يسمونه ويرضون من مشائخ القبائل من يحكم بينهما ويجلسان بين يديه ويبثّ كل منهما دعواه ضدّ الآخر، فإذا كانت القضية بسيطةً حُكم فيها بذبيحة علىٰ المخطئ يذبحها لخصمه، وإذا كانت القضية كبيرةً حُكم فيها (بجنبية) أي: كانوا في القدم يضربونه علىٰ رأسه بآلة حادة حتىٰ يسيل دمه، ولكن اليوم تقدر (الجنبية بدراهم) ويسمون هذا: صلحًا، وهذا الشيء منتشر بين القبائل ويسمونه: مذهبًا، بمعنىٰ: إذا لم ترض بفعلهم هذا فيقولون عنك: (قاطع المذهب)، فما الحكم في هذا يا فضيلة الشيخ؟

ج: يجب علىٰ المسلمين أن يتحاكموا إلىٰ الشريعة الإسلامية لا إلىٰ الأحكام العُرفية ولا القوانين الوضعية، وما ذكرته ليس صلحًا في الحقيقة، وإنما هو تحاكم إلىٰ مبادئ وقواعد عُرفية؛ ولذا يسمونها: مذهبًا، ويقولون لمن لم يرض بالحكم بمقتضاها: إنه قاطع المذهب، وتسميته صلحًا لا يخرجه عن حقيقته من أنه تحاكم إلىٰ الطاغوت، ثم الحكم الذي عيّنوه من الذبح أو الضرب بآلة حادّة علىٰ الرأس حتىٰ يسيل منه الدم ليس حكمًا شرعيًّا.

وعلىٰ هذا يجب علىٰ مشايخ القبائل ألا يحكموا بين الناس بهذه الطريقة، ويجب علىٰ المسلمين ألا يتحاكموا إليهم إذا لم يعدلوا عنها إلىٰ الحكم بالشرع، واليوم -ولله الحمد- قد نصّب وليّ الأمر قضاةً يحكمون بين الناس ويفصلون في خصوماتهم بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ويحلون مشكلاتهم بما لا يتنافىٰ مع شرع الله تعالىٰ، فلا عذر لأحد في التحاكم إلىٰ الطاغوت بعد إقامة من يتحاكم إليه علماء الإسلام ويحكم بحكم الله سبحانه.

وبالله التوفيق. وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو عضو نائب رئيس اللجنة الرئيس

عبد الله بن قعود عبد الله بن غديان عبد الرزاق العفيفي عبد العزيز بن عبد الله بن باز

كلمتي الأخيرة

وبعدُ: هذه فتاوىٰ أبرز العلماء المعاصرين، وهم في فضلهم وعلمهم -ولا أزكي علىٰ الله أحدًا- أشدّ رسوخًا من الجبال، ولهذا فقد اشتهروا في جميع بلدان العالم الإسلامي، ومن يعُد إلىٰ مجموع فتاويهم يجد أنّ الناس كانوا يستفتونهم من: الهند، وإندونيسيا، وإفريقيا، ومن سائر البلدان العربية والأعجمية، وفيما يلي مثال علىٰ ذلك:

في حرب الاستقلال الجزائرية [١٩٥٤-١٩٦٢] واجه المجاهدون الجزائريون مسألةً غايةً في الخطورة، فجاؤوا يستفتون العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية:

السؤال: إذا أسر الفرنساويون أحد كبار المجاهدين أعطوه إبرةً مُسْكرةً فيختلط كلامه، ويخبرهم بما عنده من أسرار عن الذخيرة والمجاهدين، فهل يجوز له أن ينتحر قبل أن يضربوه بالشرنقة، ويقول: أموت وأنا شهيد؟

فكان جواب الشيخ -رحمه الله-:

(إذا كان كما تذكرون فيجوز، ومن دليله «**آمنا برب الغلام**» وقول بعض أهل العلم: إن السفينة... إلخ، إلا أنّ فيه التوقف من جهة قتل الإنسان نفسه، ومفسدة ذلك أعظم من مفسدة هذا، فالقاعدة محكمة، وهو مقتول ولا بدّ).

قال جامع الفتاوىٰ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم عن حديث الغلام: (هذا في حديث صهيب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر،... وفيه فقال الغلام للملك: إنك لست بقاتلي حتىٰ تجمع الناس في صعيد**

واحد، وتصلبني علىٰ جذع ثمّ تأخذ سهمًا من كنانتي ثمّ ضع السهم في كبد القوس، ثمّ قُلْ: بسم الله رب الغلام، ففعل، فمات، فقال الناس آمنا برب الغلام ...إلىٰ آخر الحديث» أخرجه مسلم بطوله.

وعن السفينة قال محمد بن قاسم:

إذا خيف غرقها بالجميع جاز أن يُلقىٰ بعضهم، واستدلوا بقصة يونس -عليه السلام- ، وذلك أنّ السفينة تلعب بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا علىٰ الغرق فساهموا علىٰ من يقع عليه القرعة يُلقىٰ في البحر لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة علىٰ نبي الله يونس -عليه السلام- ثلاث مرات، وهم يضنّون به أن يُلقىٰ من بينهم.(١)

ولا أدري من أي شيء أعجب في أمر هذه الفتوىٰ النفيسة؟! أمن تقدير المجاهدين الجزائريين لعلم الشيخ ومكانته عند علماء المسلمين، واستفتائهم له دون غيره رغم المسافة الشاسعة بين الجزائر والرياض؟! أم من بُعْد نظر الشيخ في جوابه، وحسن تفاعله مع جهاد الشعب الجزائري؟! أم من سعة اطلاعه وغزارة علمه وتحرّره من كلّ قيد فهل ما يفتي يكون سببًا في توتير الأجواء بين بلده وفرنسا... لم تكن مثل هذه الأمور في حساب الشيخ، وحسبه أن يقول ما يرضي ربه ويطمئن إليه ضميره؟!

لقد طُرحت هذه المسألة قبل بضع سنين، فأفتىٰ كثير من المتفيهقين بعدم شرعية الانتحار حتىٰ لو كان السائل يعرف كمًّا كبيرًا من المعلومات الخطيرة التي تضرّ بالمسجد الأقصىٰ وبفلسطين.

---

(١) فتاوىٰ ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم (٦/ ٢٠٧) رقم الفتوىٰ [١٤٧٩].

أتدرون الأسباب التي دفعت المتفيهقين إلىٰ إصدار هذه الفتوىٰ؟!

إنهم يعلمون جيّدًا أن الجهاد كله غير مرغوب فيه عند من يرجون نفعهم ويخشون غضبهم فيؤثرون غضب الله علىٰ غضب خلقه وويل لمن كان هذا صنيعه.

وكما أسلفنا فالنماذج التي اخترناها تمثّل مواقف وفتاوىٰ علماء الأمة ودعاتها في هذا العصر،... ولقد سمع كثير من هؤلاء همهمات الظالمين التي تحولت مع مرور الأيام إلىٰ تهديد ووعيد فكان ردّهم:

لن نسمح لكم أن تحدّدوا لنا كيف نعبد الله وحده لا شريك له ولن نقبل أن تفرضوا علينا قوائم بما هو ممنوع الحديث فيه فالحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرّمه وكما أننا نعبد الله بالصلاة والصيام والحجّ والزكاة فإننا نتعبّده -جلّ وعلا- بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيله، والعمل الدؤوب من أجل تحكيم الشريعة الإسلامية في سائر أمور حياتنا... فمن هؤلاء العلماء من قضىٰ نحبه، وهو يبيّن للناس موقفه من هذه النازلة، ومنهم من عاش سنيِّ عمره في النفي والتشريد، أو في غياهب سجون المستبدين.

ومع وضوح فتاوىٰ العلماء ومواقفهم في القديم والحديث، فهناك من يقرؤها قراءةً ليس فيها مثقال ذرة من العدل والإنصاف، ثم يطلبون من الناس اتّباعهم، وهؤلاء صنفان:

الصنف الأول: وهم شيوخ الظالمين الذين تحدّثنا عن صفاتهم فيما مضىٰ من هذا الكتاب، فكلّ حكم شرعيّ -عندهم- يجب ألا يتعارض مع رغبة السلطان وتعليماته ... ولهذا فهم يجمِّعون مَن هم علىٰ شاكلتهم ممن ابتلي بهم العلم وأهله، ويوجهون سهام

نقدهم وتجريحهم إلىٰ صدور الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وخلاصة قولهم: إنّ الذين يثيرون مسألة الحكم بغير ما أنزل الله دعاة فتنة، ويريدون من وراء ذلك الخروج علىٰ ولاة الأمور كما فعل الخوارج من قبلهم، وهذا ما يجب الحذر منه... ومن ثمّ فليست المسألة بهذا الحجم الذي يصوّرونه للناس، وولاة الأمور حريصون علىٰ استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

أما ولاة الأمور فيتخذون من وقع عليه اختيارهم من الشيوخ بطانةً لهم، ولكن من الدرجة الثالثة، ويغدقون عليهم الأموال والمراتب المخصّصة لأمثالهم.. ثمّ يفتحون أمامهم أبواب وسائل الإعلام يصولون ويجولون فيها ضدّ عدو واحد لا يتجاوزونه إلىٰ غيره، وهذا العدوّ ممنوع من حقّ الدفاع عن النفس وبيان بطلان ما يرميه به خصومه، كما أنّ أخطر قضايا العصر الشرعية لا يجوز الحديث فيها إلا من قبل جهة متهمة بعلمها وعدلها وأمانتها، وإن لبست لبوس العلماء. وليس أمام الطرف الآخر من العلماء والدعاة إلا الصمت أو اللجوء إلىٰ وسائل إعلامية حرّة لا يستطيع الحاكم المستبد السيطرة عليها -وهي كثيرة ومتعدّدة في هذا العصر- وهذا مما يزيد الظالمين غضبًا، فيلجؤون إلىٰ وسائل قمعية توتّر أجواء البلاد والعباد، وتخلق أرضيةً خصبةً للغلوّ والقهر وسفك الدماء، وهي أوّلاً وأخيرًا من صنيع الحاكم المستبد الذي يعتقد أنّ سجونه كافية لإسكات الذين يعارضون طغيانه بالكلمة وليس بالقوة.

الصنف الثاني: يقولون هاهم علماء الأمة أفتوا بكفر الدساتير والقوانين العلمانية التي فُرضت علينا، وهذا يعني كفر الذين وضعوها وأقرّوها، ويبدؤون بتكفير رئيس الدولة، فوزرائه، ومستشاريه، وقادة جيش الدولة وأمنها، ثم يكفّرون كبار المسؤولين، ثم

يسترسلون فيكفّرون من حكموا عليه بأنه كافر، وكلّ مسلم لا يحكمون بإسلامه حتىٰ يختبروه، وهذا الذي يسمونه التوقّف والتبيين.

بدأت في رصد هذه الظاهرة منذ النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، فجمعت كل ما كتبته جماعة شكري مصطفىٰ [جماعة المسلمين] عن الأصول والثوابت التي يؤمنون بها ويدعون إليها، ثم طلبت إلىٰ بعض أصحابي الاختلاط بهم والاستماع إليهم، ومناقشتهم بأمور لا تثير غضبهم، فقاموا بالمهمة خير قيام، وعندما استكملت المادة من مختلف جوانبها أصدرت كتابي الأول: [الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلوّ] نقد أصول وتصورات جماعة شكري، وكان ذلك في عام ١٤٠٧ه الموافق ١٩٨٧م، وفي عام ١٤١٢ه الموافق ١٩٩٢م صدرت الطبعة الأولىٰ من كتابي الثاني: [الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو، التوقف والتبيين].

وفي المنتصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي نشرت كتابي الثالث: [السلفية بين الولاة والغُلاة]،[1] ففي الجزء الأول منه تحدّثت عن الذين يرون الخروج علىٰ الحاكم بالقوة ويسمّونه جهادًا، وهي تسمية باطلة، وفي الجزء الثاني تحدثت عن حزب الولاة الذين يضعون قول الحاكم فوق كلّ قول، ولو كان آية من كتاب الله أو حديثًا نبويًّا، فتراهم يؤوّلون النص تأويلاً يخرجه عن معناه.

وأحسب أنّ كتبي الثلاثة استوفت مناقشة أصول وتصورات منظّري حزبيْ الولاة والغُلاة، وبيّنت تهافتها، واعتمادها علىٰ الهوىٰ وما تشتهيه الأنفس المريضة. ولم أخرج في

(١) نشرته علىٰ شكل حلقات في مجلة السنة، وأرجو أن تكون طباعته قريبة، ولا أدري: أأُبقي عنوان الكتاب كما هو أم أستبدله بعنوان آخر؟

كلّ ما كتبته عن منهج علماء وأئمة أهل السُّنة في القديم والحديث... ومع ذلك يزعم أهل الغلوّ أنّ موقفي غير واضح من هذه النازلة، وأنني ألجأ لاستخدام عبارات مبهمة حتّىٰ لا يعرف القارئ أنني من هذه الجهة أو من تلك.

إنّ موقفي واضح وضوح الشمس رأد الضحىٰ، وكتبي وسيرة حياتي يشهدان علىٰ ذلك، أما كتبي فرواجها أصعب من رواج المخدّرات، وأما سيرة حياتي فإني -والحمد لله- لم أضع نفسي في خدمة طاغية من الطغاة طوال عمري... وها قد مضىٰ علىٰ غربتي خمسة وأربعون عامًا، كنت وأهلي خلالها كالبدو الرحّل ننتقل من بلد لآخر، وأسأل الله أن يكون ذلك في سبيله.

أما أصحاب الأهواء والشهوات من أعضاء حزب الولاة، فأقول لهم: إنني لم أتجاوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -حسب ضوابطه الشرعيّة- في جميع كتاباتي ومواقفي، وما دعوتُ في يوم من أيام عمري إلىٰ إراقة دم القطط فضلاً عن إراقة دم البشر الذين عصم الله دماءهم، وأرجو أن نكون ممن عناهم الشاعر المبدع:

كلّ سرٍّ دون عصري قد خفي ... ما بهذي السوق يشرىٰ يوسفي

وقبل الفراغ من كتابة هذا الفصل أود فيما يلي التحذير من أمر بالغ الخطورة:

إن مسألة الحكم بغير ما أنزل الله لها شقان:

الشق الأول: ما الموقف من الدساتير والقوانين العلمانية المفروضة علينا؟!

والشق الثاني: ما الموقف من الحكام؟

والقفز من الشق الأول إلىٰ الثاني ظلم وهروب من أصل النزاع، كما أنّ الذين

يتسرّعون ويدخلون في نقاشات حادّة حول إسقاط حكم الردّة علىٰ الحكام لا ينتبهون إلىٰ الاستدراج الذي أوقعهم المخالفون فيه!!

أما **الشق الأول** فجوابه ما أفتىٰ به من وقع عليه اختيارنا من العلماء، وهذا موضع إجماعهم في القديم والحديث، وحاشا لله من أن يكون بينهم من يرىٰ شرعية القوانين العلمانية التي تتعارض جملةً وتفصيلاً مع قوله تعالىٰ:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة النساء:٦٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة النساء:٥٩].

وعندما نأتي **للشق الثاني**، فلا بدّ من أن نتقيد بأقوال أئمة الإسلام المشفوعة بالأدلة ثم ننتقل إلىٰ تطبيقها علىٰ الواقع:

(يفرّق أهل السُّنة بين تكفير المطلق وتكفير المعيّن، ففي الأول يطلق القول بكفر صاحبه -الذي تلبّس بالكفر- فيقال: من قال كذا، أو فعل كذا، فهو كافر، ولكن الشخص المعيّن الذي قاله أو فعله، لا يحكم بكفره إطلاقًا حتىٰ تجتمع فيه الشروط، وتنتفي عنه الموانع، فعندئذٍ تقوم عليه الحجّة التي يكفر تاركها).

ويضيف شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وإن الإمام أحمد وعامّة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات، لم يكفّروا أكثر من تكلّم بهذا الكلام بعينه).

وكان ابن تيمية يقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أنّ الله تعالىٰ فوق العرش، لما وقعت محنتهم: (أنا لو وافقتكم كنت كافرًا، لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون، لأنكم جهّال).

وكان الإمام أحمد يترحّم علىٰ ولاة الأمور الذين قالوا بقول الجهمية ويستغفر لهم، مع أنهم كانوا يدعون إلىٰ هذه البدعة المكفرة، ويعاقبون ويكفّرون من لم يجبهم، وكذلك الشافعي لمّا قال لحفص الفرد حين قال: القرآن مخلوق، كفرت بالله العظيم، بيّن له أنّ هذا القول كفر؛ ولم يحكم بردّة حفص بمجرد ذلك، لأنه لم يتبيّن له الحجّة التي يكفر بها، ولو اعتقد أنه مرتد، لسعىٰ في قتله).

وإذًا، فالتكفير حكم شرعيّ سببه جحد الربوبية أو الوحدانية، أو الرسالة، أو قول أو فعل حكم الشارع بأنه كفر وإن لم يكن جحدًا، وهو ليس ناشئًا عن خصومة أو هوىٰ، ولهذا لم يكفّر علماء الإسلام ولاة الأمور الذين يعتقدون ببدع مكفّرة كخلق القرآن، والجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته وغيرهم، لأنّ التكفير المطلق غير تكفير المعيّن.

أجل لم يكفّروهم بأعيانهم وترحّموا عليهم بعد موتهم رغم أنهم تعرّضوا للسجن والجلد والتعذيب علىٰ أيديهم، وهذا درس لكل داعية يتصدّىٰ لبيان الحكم الشرعيّ في هذه النازلة، ودرس أيضًا للشباب الذين سلّط الله عليهم حكامًا طغاةً مستبدين، زجّوا بهم في سجونهم المظلمة الموحشة، ومارسوا ضدهم أنواعًا من التعذيب لا يعرفها الناس إلا في هذا العصر،[1] ليقولوا عنهم: عصاةً، مفسدين، ظلمةً، مستبدين، طغاةً.. أما الحكم

(١) ما أوردته عن التكفير من أقوال استقيتها من كتاب [نواقض الإيمان القولية والعملية] لمؤلفه الدكتور عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، وهو كتاب نفيس في بابه، فجزىٰ الله مؤلفه كل خير، وهو من

بالتكفير فليس من شأنهم الخوض فيه، ورحم الله امرءًا عرف حدّه فوقف عنده.

ولاة الأمور وضوابط التكفير:

هناك ثلاثة أنواع من الحكام في هذا العصر:

النوع الأول: يطبّقون أحكام الشريعة الإسلامية [١] -وهذه البلدان قليلة جدًّا- وباتفاق العلماء لا يجوز القول بكفر هذه الأنظمة أو كفر حكامها.

فإن قيل:

إن ولاة أمور هذه البلدان يتلاعبون في تنفيذ الحدود فقد ينفّذون بعضها ويتغافلون عن بعضها الآخر وفضلاً عن ذلك فبينهم من يعتقد أنّ هذه الأحكام بل والشريعة كلها [**تركة مزعجة**] ويعمل بأشكال متعدّدة للتخلّص منها ولهذا فقد اتخذوا من العلمانيين بطانةً لهم، فهم وزراؤهم ومستشاروهم ومسؤولو إعلامهم وشركاؤهم في كل قرار يتخذونه وفي الوقت ذاته فقد استبعدوا العلماء والدعاة وقلّصوا صلاحياتهم وسلّطوا عليهم أجهزة إعلامهم تهاجمهم بطرق شتّىٰ، وتؤلّب الرأي العام ضدهم.

قلنا: مثل هذه الخروقات والانحرافات كانت تحدث في عهد الخلافة الإسلامية: ففي العهد العباسي أحدث بعض الخلفاء بدعًا مكفّرةً مثل: بدعة خلق القرآن وغيرها، وأوجبوا علىٰ الناس، وبالأخص العلماء القول بها، ومن أبىٰ فليس أمامه إلا السجن والتعذيب والحرمان، وما أمر فتنة الإمام أحمد عنّا ببعيد، وزيادةً علىٰ ذلك فقد اتخذ

منشورات دار الوطن-الرياض.

(١) ويختلف هذا التطبيق من بلد لآخر، فقد يكون بعضها أفضل من بعضها الآخر.

عدد من الخلفاء العباسيين من الفرس -الذين يبطنون عقائد المجوس- بطانةً لهم، ومن الأمثلة علىٰ ذلك أن مكانة البرامكة في الدولة، كانت لا تقلّ أهميةً عن دور الخليفة.

وفي العهد العثماني بدأ السلاطين يستوردون قوانين أجنبيةً أوروبيةً، ويخلطون بينها وبين أحكام الشريعة الإسلامية، وكان مثل هذا الأمر يتم بالتدريج حتىٰ لا تثير حفيظة أحد، ولعل أوّل من استورد هذه القوانين السلطان سليمان خان الأول [١٤٩٥-١٥٦٦م]،ففي عام [١٥٣٦م] أصدر مرسومًا منح بموجبه بعض الامتيازات لرعايا الدولة الفرنسية، ثمّ توسّعت هذه الامتيازات فشملت بريطانيا وروسيا ودول أوروبية أخرىٰ، ومع مرور الزمن أدّت هذه الامتيازات إلىٰ إنشاء المحاكم المختلطة التي تطبق القوانين الأجنبية. ثمّ صارت السفارات وخاصة البريطانية والروسية والفرنسية وكأنها دويلات مستقلة داخل الدولة العثمانية، والسلطان سليمان الذي كان أول من باء بهذا الإثم لُقّب بالقانوني، ويُكتب اسمه دائمًا **السلطان سليمان القانوني**.

وفضلاً عن هذا وذاك، فقد كان الخلفاء في العهد العباسي وما تلاه من عهود -إلا من رحم ربي- يعيشون حياة الزهو والترف والمفاخرة، وكانت قصورهم تعج بالغلمان، والجواري، والخمور، والرقص، والمجون... ورغم ذلك كله، فقد كان علماء السلف -كما رأينا فيما مضىٰ من هذا الكتاب- يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، ويترحّمون علىٰ من مات منهم، ولا يحكمون عليهم بكفر ولا ردّة، وهذا هو موقف غُلاة عصرنا، فما الذي دعاهم إلىٰ تكفير الحكام المعاصرين دون من سلفهم من الحكام الذين كانوا يرتكبون بدعًا مكفّرةً ويفرضونها علىٰ شعوبهم؟!

فيا علماء الأمة ودعاتها الأفاضل: لقد بلغ السيل الزّبىٰ في تهاون واستهتار هذا النوع

من الحكام، وتطاول العلمانيين وأشياعهم من الزنادقة والليبراليين علىٰ الإسلام والمسلمين، وأنتم صامتون، فإلىٰ متىٰ هذا الصمت والهوان؟ واسمحوا لي أن أقول وأنا في غاية الإحراج: إن سكوتكم وضعفكم وتردّدكم ورضاكم من الغنيمة بالإياب عاد علىٰ الأمة بنتيجتين، كل منهما أسوأ من الأخرىٰ:

أما الأولىٰ فإن الغُلاة المتسرّعين من الشباب زعموا أنه لا نفع ولا فائدة منكم، وما عليهم إلا الاعتماد علىٰ أنفسهم، فنفّذوا ما يخططون من أعمال لا يملكون أيّ دليل شرعيّ عليها، وتعلمون كم من الويلات والمصائب جرّت أعمالهم الطائشة علىٰ شعوبنا ،وكانت أداةً للظالمين ليبطشوا بنا جديدًا، ويدخلوا الرعب في قلوبنا.

وأما الثانية فقد أدرك الظالمون وبطانتهم الخبيثة أنّ عنفهم وجبروتهم سلاح فعّال، وها هو صوت الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر قد خفت، وأنّ الباب مفتوح أمامهم لتنفيذ مخططاتهم، فزادت وقاحتهم وتضاعفت جرأتهم، فبين فترة وأخرىٰ يصدرون مرسومًا مخالفًا لأحكام الشريعة الإسلامية.

يا من تتأسّون بأئمة سلف الأمة: اذكروا وتدبّروا قول الإمام أحمد لعمه إسحاق: (إذا أجاب العالم تقيةً والجاهل يجهل، متىٰ يتبيّن الحق؟!).

وجواب الإمام النووي للسلطان الذي غضب من نصحه له: (... وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالىٰ:﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [سورة آل عمران:١٨٧] فوجب علينا حينئذٍ بيانه وحرُم علينا السكوت).

وإنكم يا علماء ودعاة الإسلام، إذا لم تنهضوا وتؤدّوا ما أوجبه الله عليكم بالحكمة

والموعظة الحسنة فسيؤول أمور الحكم في بلدانكم إلىٰ غير شرع الله.

النوع الثاني: وهم أصناف:

الصنف الأول: رضوا بعدم تحكيم شرع الله لأنه لا يصلح للحكم، زاعمين بأَنْ لا دين في السياسة، وما اكتفوا بذلك، بل أنكروا معلومًا من الدين بالضرورة دون أن يكون لهم أدنىٰ عذرٍ بجهله، فمنهم من أنكر آيات من كتاب الله، وشكّك بشرعية الحجّ إلىٰ بيت الله الحرام، ومنهم من أنكر السُّنة النبوية أو بعضها ممن أجمعت الأمة علىٰ صحتها،وأحد هؤلاء كان يقول بافتخار: [**سيكون أتاتورك العرب**]، وعمل علىٰ ذلك بكلّ ما يستطيع.

الصنف الثاني: حزب علمانيّ تسلّم مقاليد السلطة في بلد يدين شعبه بالإسلام وفرض علىٰ هذا الشعب عقائده الفاسدة ومبادئه التي تحادّ الله ورسوله، وطارد العلماء والدعاة إلىٰ الله الذين بيّنوا انحراف هذا الحزب، وردّة القادة المنظّرين دون أعضائه لأنه قد تكون لهم أسباب خفيّة جعلتهم ينتمون لهذا الحزب.

الصنف الثالث: طائفة باطنية قرمطية، استغلّت ظروف وجودها بقوة في الجيش، وغفلة المسؤولين عن تنظيمها الباطني داخل هذه المؤسسة العسكرية، ثمّ -وكما قلت مرارًا- ركبت حمارًا اسمه [حزب البعث العربي الاشتراكي] وانقضّت علىٰ الحكم في بلاد الشام فتسلّمت زمامه، ثمّ تخلّت عن رفاقها من مؤسسي الحزب وقيادته وأهل الرأي فيه، فكانت عاقبتهم مثل عاقبة سنمار،[1] ومنذ أكثر من أربعين عامًّا وحتّىٰ يومنا هذا،

(١) بنّاء روميّ الأصل بنىٰ للنعمان بن امرئ القيس قصر الخورنق قرب الكوفة، وصعد إليه النعمان، فقال: ما رأيت مثل هذا البناء قط، فقال له سنمار: إنّي أعلم موضع آجرّةٍ لو زالت لسقط القصر كله، فقال النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ قال: لا فقال: لأدعنّها وما يعرفها أحد، وأمر به فقُذف من أعلىٰ القصر، فتقطع،

وإلىٰ أن يشاء الله لم تترك هذه الطائفة الحاكمة وسيلةً خبيثةً إلا واستخدمتها في حربها للإسلام والمسلمين، وبالأخص ضدّ الدعاة السلفيين في كلٍّ من سوريا ولبنان.

وقصارىٰ القول: فإنّ كفر هذه الأصناف الثلاثة واضح بيّن، وبهذا أفتىٰ مجموعة من كبار علماء الأمة، ولا بدّ من التنبيه إلىٰ أنّ أشدّها مروقًا من الدين الطائفة القرمطية النصيرية.. ومع ذلك فإنّ باب التوبة مفتوح، والله غفور رحيم، فمن نقض معلومًا من الدين بالضرورة لا يلازمه الكفر طوال عمره، فقد يتراجع عن قوله واعتقاده ونحن لا ندري.

النوع الثالث: الحكم في بلادهم للدساتير والقوانين العلمانية المستوردة وليس لشرع الله، ولم ينكر أحد من هؤلاء الحكام معلومًا من الدين بالضرورة، وهم ليسوا صنفًا واحدًا بل أصنافًا متعدّدةً:

فمنهم: من أعطىٰ هامشًا من الحرية لشعبه، واستفاد منه العلماء والدعاة والجماعات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما استفاد منه أصحاب المذاهب والاتجاهات الهدامة.

ومنهم: من جاء إلىٰ الحكم علىٰ ظهر دبّابة، ففرض علىٰ شعبه قانون الطوارئ، فكمّ الأفواه، وقيّد الحريات، وأطلق وسائل إعلامه لتسبّح باسم القائد المُلهم الذي أنقذ شعبه من الذل والاستعباد، ونشر الرخاء والسعادة.. وقبل انقلابه كان من أبعد الناس عن الإلهام المزعوم.

ومنهم: من يخفض جناحه لمواطنيه، ويتعاطف مع القضايا الإسلامية، إن لم تسبب

وضربت العرب به المثل: جزاه جزاء سنمار. انظر الأعلام للزركلي.

له ضررًا، فإن شعر بشيء من ذلك غير موقفه، كما يغيّر قميصه دون أن يشعر بأي حرج.

وإذًا: فهناك أنواع متعدّدة من الحكام، وكلّ نوع يختلف عن الآخر، وعلماء الأمة تختلف فتاويهم، وحتّىٰ النوع الثاني فقد يأتي من العلماء من يقول: لم يبلغني أنّ الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، ولهذا فهو لا يفتي بكفره، وقد يقول عالم -أو علماء- آخر: العلماء الكبار هم الذين يفتون في مثل هذه القضايا، وليس دهماء الناس وأنصاف المثقفين فيهم.

والسؤال الذي يفرض نفسه: لماذا يتهرب بعضنا أو أكثرنا من أمر اتفق عليه علماء الأمة ودعاتها إلىٰ أمر آخر اختلفوا فيه اختلافًا استفاد منه عدوّنا ففرّق صفّنا، وشتّت جمعنا، وجعل بأسنا بيننا؟!

لماذا لا نخرج من هذا التيه الذي أدخلَنا فيه شبابٌ أحداث يتطاولون علىٰ العلم وأهله، ويفتون في قضايا لو عُرضت واحدة منها علىٰ أحد الخلفاء الراشدين لجمع لها كبار علماء الصحابة -رضي الله عنهم-؟!

إن الفرقة عذاب، والخلاف شر وهوان.. فيا دعاة الأمة، قولوا لنا: كيف نوحّد صفّنا، ونتخذ مواقف فعّالةً من قضية هي -من غير شك- من أهم قضايا عصرنا؟!

أخبرونا يا أهل الرأي والخبرة: كيف نربي أبناءنا وشبابنا علىٰ منهج سلف الأمة، ونجنبهم الغلوّ والتنطع كما نجنبهم التسيّب ومداهنة الظالمين؟!

إنّ الواجب الشرعيّ يفرض علينا التعاون فيما بيننا من أجل وضع حدّ لهذه الفوضىٰ العارمة التي اجتاحتنا وجعلتنا أضحوكة بين الأمم. قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [سورة المائدة:٢].

الرئيس التونسي الهالك الحبيب بورقيبه أحد هؤلاء الطواغيت، فهو لم يكتف بعدم صلاحية الإسلام للحكم -وهذا بحدّ ذاته ردّة عن الإسلام-، وإنما أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، في خطاب له ألقاه في مؤتمر المدرّسين والمربين لمناسبة الملتقىٰ الدولي، حول الثقافة الذاتية والوعي القومي. قال فيه:

إنّ القرآن الكريم متناقض، ومشتمل علىٰ بعض الخرافات، ووصف الرسول ﷺ بأنه إنسان بسيط يسافر كثيرًا في الصحراء، ويستمع إلىٰ الخرافات البسيطة السائدة في ذلك الوقت، وقد نقل تلك الخرافات إلىٰ القرآن.

فردّ عليه الشيخ عبد العزيز بن باز وعدد من العلماء رحمهم الله، وهذه هي رسالتهم إليه:

السيد الحبيب بورقيبة، رئيس الجمهورية التونسية، تونس.

نسبت إليكم صحيفة «**الشهاب**» بعددها الصادر بتاريخ ٢٣ ربيع الأول تصريحات مكفّرةً لما فيها من الطعن في القرآن الكريم، والمصطفىٰ ﷺ، ودعوتكم لرجال التعليم لنشرها بين الطلاب.

فإن كنتم قد اقترفتموها، فالواجب عليكم المبادرة إلىٰ التوبة والعودة إلىٰ الإسلام والأوجب عليكم المبادرة إلىٰ التكذيب الصريح، ونشره في العالم بجميع وسائل النشر، وإعلان عقيدتكم الإسلامية الصحيحة في الله تعالىٰ وكتابه ورسوله، تبرئةً من الكفر، وتسكينًا للفتن، وتطمينًا للمسلمين في سائر الدول، وتقريرًا لصلاحيتكم لحكم أمة إسلامية عريقة في الإسلام، وإن عدم التكذيب دليل علىٰ الإصرار علىٰ الردّة، ومثار فتن لا يعلم عواقبها إلا رب العالمين، تحمل وزرها ووزر من يرتكس فيها إلىٰ يوم الدين، قال

تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١﴾ [سورة النور:١١].

أبو الحسن علىٰ الحسني الندوي حسنين محمد مخلوف عبد العزيز عبد الله بن باز أمين ندوة العلماء لكنوا-الهند مفتي الديار المصرية سابقًا رئيس الجامعة الإسلامية

أبو بكر محمود جومي الدكتور محمد أمين المصري

قاضي قضاة ولايات شمال نيجيريا جامعة الملك عبد العزيز بمكة

وفي رسالة أخرىٰ للشيخ عبد العزيز بن باز جاء فيها:

(ثمّ اطلعتُ علىٰ صحيفة الصباح التونسية فألفيتها قد ذكرت في عددها الصادر في ٢١ مارس ١٩٧٤م طبق ما نقلته عنها صحيفة الشهاب فيما يتعلّق بعصا موسىٰ، وقصة أهل الكهف، كما ألفيتها قد نصّت علىٰ منكر شنيع، في عددها الصادر ٢٠ مارس ١٩٧٤م، وقع في خطاب الرئيس المذكور، لم تُشِر إليه صحيفة الشهاب وهذا نصه:

علىٰ أني لا أريد أن ألفت نظركم إلىٰ نقص سأبذل كل ما في وسعي لتداركه، قبل أن تصل مهمتي إلىٰ نهايتها وأريد أن أشير بهذا إلىٰ موضوع المساواة بين الرجل والمرأة، وهي مساواة متوفّرة في المدرسة وفي المعمل، وفي النشاط الفلاحي، وحتىٰ في الشرطة لكنها لم تتوفّر في الإرث، حيث بقي للذكر مثل حظ الأنثيين، إن مثل هذا المبدأ يجد ما يبرره، عندما يكون الرجل قوّامًا علىٰ المرأة، وقد كانت المرأة بالفعل في مستوىٰ اجتماعي لا يسمح بإقرار مساواة بينها وبين الرجل فقد كانت البنت تُدفن حيةً وتعامل باحتقار وها هي الآن تقتحم ميدان العمل وقد تضطلع بشؤون أشقائها الأصغر منها سنًّا فزوجتي -مثلاً- هي التي تولّت السهر علىٰ شقيقها المنذر وتكبّدت -من أجل ذلك- كل متاعب

العمل الفِلاحي ووفّرت له سبل التعليم وحرصت علىٰ تحقيق أمنية والدها الذي كان يرغب في توجيه ابنه نحو المحاماة فهل يكون من المنطق في شيء أن ترث الشقيقة نصف ما يرثه شقيقها في هذه الحالة فعلينا أن نتوخّىٰ طريق الاجتهاد في تحليلنا لهذه المسألة وأن نبادر بتطوير الأحكام التشريعية بحسب ما يقتضيه تطوّر المجتمع وقد سبق أن حجرنا تعدد الزوجات بالاجتهاد في مفهوم الآية الكريمة ومن حق الحكام -بوصفهم أمراء المؤمنين- أن يطوّروا الأحكام بحسب تطور الشعب وتطور مفهوم العدل ونمط الحياة.

هكذا في الصحيفة المذكورة وهذا إن صحّ صدوره منه فهو نوع آخر من الكفر الصريح لأنه زعم أن إعطاء المرأة نصف ما يعطاه الذكر نقص وليس من المنطق البقاء عليه بعد مشاركة المرأة في ميدان العمل، كما ذكر أنه حجر تعدد النساء بالاجتهاد وأنه يجب تطوير الأحكام الشرعيّة بالاجتهاد حسب تطور المجتمع وذكر أن هذا من حق الحكام لكونهم أمراء المؤمنين وهذا من أبطل الباطل وهو يتضمن شرًّا كثيرًا وفسادًا عظيمًا.

ثم جاء إلىٰ الشيخ ابن باز جواب من الرئيس الهالك الحبيب بورقيبه يخبره فيه أنه اطّلع علىٰ برقية الشيخ ويشكره علىٰ نصيحته لكنه لم يتعرّض لخطابه وما جاء فيه من أقوال خطيرة ومن المؤكد أن الشيخ لم يقتنع برد بورقيبه الذي كتبه وزيره ومدير الديوان الرئاسي الشاذلي القليبي مما جعل الشيخ يكتب رسالةً عامّةً عنوانها [**حكم الإسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض أو مشتمل علىٰ بعض الخرافات أو وصف الرسول ﷺ بما يتضمن تنقصه أو الطعن في رسالته والرد علىٰ الرئيس أبي رقيبة فيما نُسب إليه من ذلك**] وهذه الرسالة من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٩٦هـ.

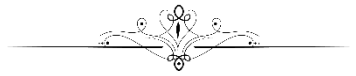

الفهرس

مقدمة الطبعة الثالثة ١
المقدمة ٣
الفصل الأول: موقف علماء السلف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٦
حدود طاعة وليّ الأمر ٧
موقف شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧
الفصل الثاني: الخير كل الخير في اتّباع علماء السلف ٤١
أوضاع بلدنا أفضل مما هي عليه في البلدان الأخرى ٤٢
الخصال التي يجب توافرها في المفتي ٤٨
من هدي علماء السلف اعتزال مجالس السلاطين ٥٦
التذكير بمنهج الاستدلال عند أهل السُّنة ٦٥
الفصل الثالث: علماء السلطان ٧٣
علماء السلطان ٧٤
أحمد حسن الباقوري: ٧٦
عبد الستار السيّد: ٨١
عبد العزيز كامل: ٨٧
شيوخ آخرون: ٩٦
ماذا كان يجري داخل السجون؟: ١٠٠
فاعتبروا يا أولي الأبصار: ١٠٦
الفصل الرابع: عندما يكون الحكم لغير شرع الله ١١٠
واقعنا المعاصر ١١١
فتاوى العلماء المعاصرين ١١٨
الإمام المجدّد محمد بن عبد الوهاب: ١١٨

العلامة جمال الدين القاسمي:.....١٢١
العلاّمة محمد رشيد رضا:.....١٢٢
العلاّمة محمد حامد الفقي.....١٢٤
العلاّمة محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ التميمي:.....١٢٤
العلاّمة أحمد محمد شاكر:.....١٢٦
العلاّمة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي:.....١٢٨
العلاّمة عبد العزيز بن باز:.....١٣٩
العلاّمة عبد الله بن حميد:.....١٤٣
اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.....١٤٤
كلمتي الأخيرة.....١٤٩
ولاة الأمور وضوابط التكفير:.....١٥٧
الفهرس.....١٦٧